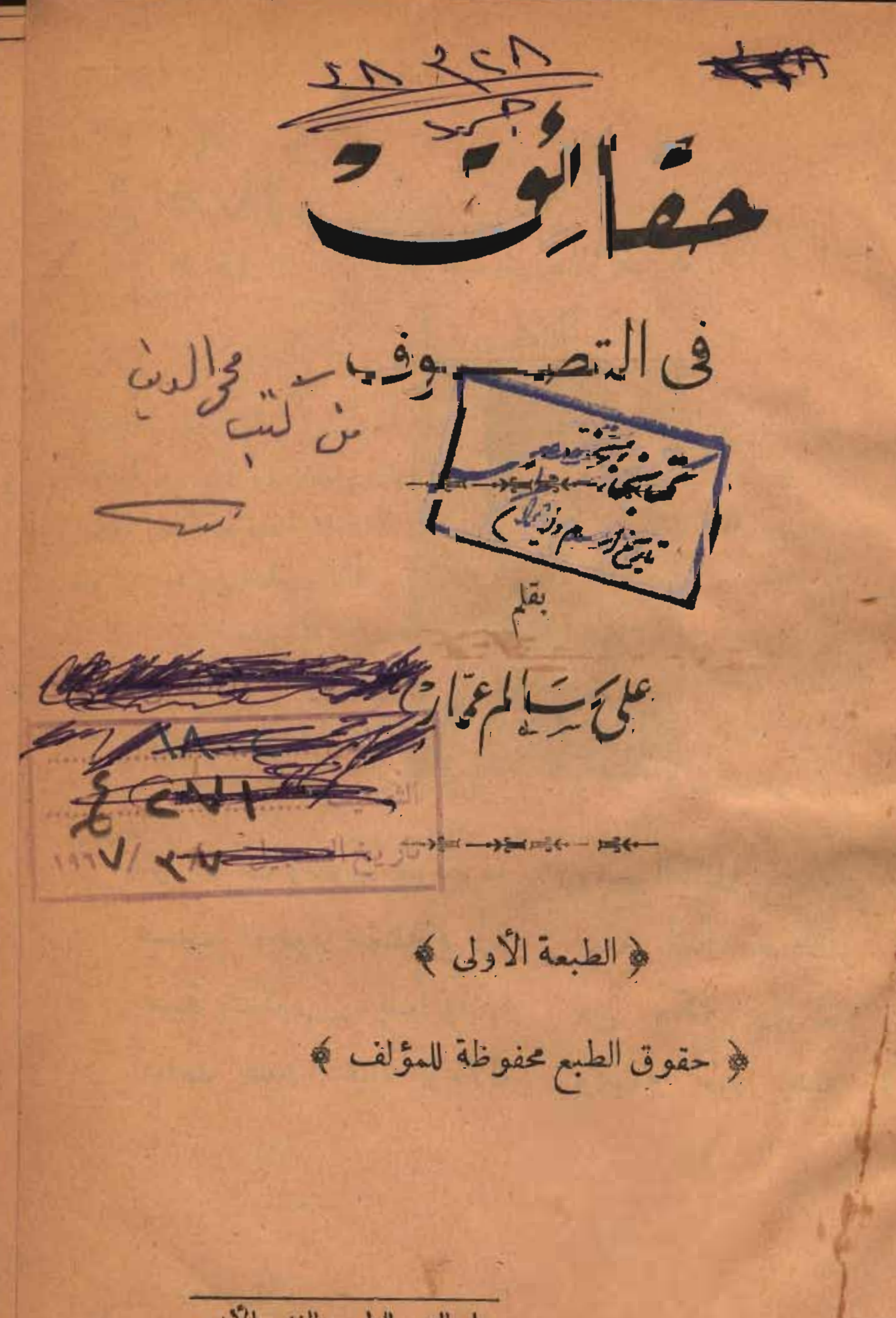


حقائق

في التصوف

بقلم

علي سالم عمار

الطبعة الأولى

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

دار النصر للطبع والنشر بالأزهر

﴿ صـــورة المؤلف ﴾



أثر عجيب وصورة موضوعة ... وضع الظلال يسير سير خيال
حسب الوجود حقيقة فردية ... فعالة أبداً بفكر عالى
معنية بالكون بدءاً وانتها ... عن حكمة وإرادة وكمال
أضفت عليه حياته وجلاله ... وجميعه من بدئه لزوال

مكتبة كلية أصول الدين - بغداد
التسلسل ١٨٠٤
التصنيف ٢٧١ ع
تاريخ التسجيل ٧/٢/٧ ١٩٦٧

الاهـــداء

الى ولدى محى الدين عمار أولا ثم الى أولادى وأحبائى واخوانى ثانيا ، أولئك
ذين صفت قلوبهم وشفت أرواحهم ، فلم تفتتنوا بالمادة وسلطانها وعالمها ، بل أيقنوا
ن فى عالم الروح ماهو أعجب وأروع مما يشاهدونه فى عالم المادة، وخصوصا فى هذا العصر
ذى صارت المادة فيه كل شىء ، فسخرت جميع القوى والآلات لخدمتها، وأصبحت فيه
روحية ضربا من الرجعية ونوعا من الأوهام . أهدى هذا الكتاب

وأجزم أن الناس اذا ما اعتنوا بالمسائل الروحية التى هى لباب الدين فالوا الى مافيها
ن المثل العليا الدينية التى هى الكمال الخلقى والكمال فى المعرفة فتمثلوها ، لبلغوا بذلك
سلامة والسكينة والطمأنينة ، ولاستراحوا من هذا الصراع المذهبى العنيف ومن هذه
لآراء الجامحة الجارفة التى كثيرا ماتجر على العالم الحروب والويلات والخراب فتفقده
سلام . والله يدعو الى دار السلام ؟

على سالم عمار

كتاب فيلسوف مصر الأكبر ورئيس مجمع فؤاد الأول للغة العربية
سعادة أحمد لطفي السيد باشا

سيدي علي أفندي سالم عمار

جاءني كتابكم ومنه قصيدتكم "[illegible]" كما وعدتموني فأشكر لكم وفاءكم بالوعد . فسألتموني رأيي في موضوع القصيدة وحقيقة أنه يكون لي رأي أعتد به في المذاهب الفلسفية الصوفية وحقيقتها لأني لم أشتغل بها اشتغالا جديا ، وحسبكم رأي الأستاذ مصطفى عبد الرازق في هذا الموضوع فهو به عليم . وتفضلوا بقبول تحياتي

أحمد لطفي السيد

رأس البر في ٢ يوليه ١٩٤٤

كتاب صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق
حينما كان أستاذاً للفلسفة الاسلامية بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

القاهرة في ١٩ ابريل سنة ١٩٢٧

حضرة النجل المحترم السيد على سالم عمار

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أما بعد فقد وصلتني رسالتكم ووصلتني معها قصيدتكم (الانسان الكامل) وقد سرني ان يكون بين اهل الجد والعمل المثمر في الحياة شبان امثالكم ينزعون نزعة صوفية تسمو بهم الى مثل الصوفية العليا.

والتصوف نشأ معبراً عن المثل الديني الاعلى وظل في ادواره كلها يعبر عن ذلك المثل. ولقد خالف الصوفية الفقهاء والمتكلمين والمتفلسفين فتعرضوا لعداوتهم واضطهادهم من غير ان تخرجهم العداوات والاضطهادات عن حدود الحب والتسامح. هذا التصوف الحقيقي الذي يقوم على الكمال الخلقي والكمال في المعرفة والذوق هو الذي نسر بأن نجد له أنصاراً بين المستنيرين من شبابنا بسمو الروح.

وقد قرأت قصيدتكم فوجدتها شعراً صوفياً لا يعيبه نقص أدبي او لغوي أو فني فان الصوفية تشغلهم المعاني عن الصور ولهم صور ادبية خاصة بهم قد لا تعجب دائماً اهل الأدب الصرف وتكاد تعجب دائماً اهل الاذواق والمواجد

وما ادعى أنني من اهل الاذواق والمواجد حتى ادرك هذه الادراكات كلها في شعركم من اشارات صوفية تتصل بوحدة الوجود او ما يقرب من وحدة الوجود.

ولكننا نسلم - على رأى ابن خلدون - لأهل الاذواق والمواجد اذواقهم ومواجدهم ونغبطهم على ما نالوا من لذة العرفان ونتمنى لهم المزيد من تلك السعادة ان كان وراء الكشف والشهود سعادة

على أنني أرجو ان توغلوا برفق فيما وراء عوالم الحس

والله يتولاكم بهدايته وتوفيقه

والسلام عليكم ورحمة الله

مصطفى عبد الرازق

كتابى الى صاحب الفضيلة الاستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق بك

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . أرسل لفضيلتكم قصيدتى (الانسان الكامل) راجيا التكرم بالنظر اليها ، ولست أقصد من ذلك مجرد العرض . فحبذا لو سمحتم بابداء رأيكم فى مضمونها ومعانيها . على انى لا أدعى جودة النظم ولا حسن الصياغة لان دراستى لم تكن كافية للخوض فى هذا المضمار والتعمق الفنى والعلمى فى هذا الباب . فانى لم أحصل فى الدرس المنظم الا لغاية سنتين بالمدارس الثانوية حتى عام سنة ١٩١٧ ثم انقطعت بعدها عن الدرس . لأقوم باعمال والدى التجارية وقد كان مريضاً ولم يكن له من الذكور سواى . وكانت مهنتنا تجارة الأقطان والحبوب . وصادفنى أبان ممارستها سنون شداد وتقلبات وجهاد بين علو وهبوط ومد وجزر . تحملتهما بصبر وجلد وثبات فمنذ حداثتى وبدء حياتى ملت بطبعى الى التصوف وتعشقت من الصوفية شعرهم وأدبهم وما يهدفون اليه من المعانى السامية ولم أمل الى تقاليدهم وازيائهم ومظاهرهم . وتتلمذت على أحد الشيوخ الذين لا يميلون الى الظهور بل يؤثرون العزلة ولا يحبون أيضا مظاهر التصوف ولم تسمح لى ظروفى بالمطالعة فى كتب القوم وفى كتب الأدب العربى الا بجلسات مختلسة . لأن أوقات التاجر وخصوصا بالريف لا يحدوها النظام لا فى الليل ولا فى النهار : كما انى لم أدرس العروض والشعر على أستاذ بل قرأت منه شيئا على نفسى . فلى العذر ياسيدى . ان جاءت قصيدتى معيبة فى بعض نواحيها الأدبية أو اللغوية أو الفنية للأسباب المذكورة . ويعلم صاحب الفضيلة أن الصوفية سواء منهم المتعلم وغير المتعلم والمثقف وغير المثقف مأخوذون بالفطرة على الطفرة لأن آمال الجميع محصورة فى الاتصال الروحى المعنوى فهم مشوقون ومسوقون الى الفناء فى الأزلية والأبدية يهدفون الى الانغمار فى حضرة الواحدية أو الأحدية على قدر مفهومية كل منهم ومقدار حاله وبلوغه لدرجة ما فى المعرفة . ولا أعدو أن أكون أحد هؤلاء .

فعفوا ياسيدى اذا بلغت بى الجرأة أن أعرض على فضيلة الأستاذ الكبير الأزهرى الجامعى الحصيف الرزين مثل هذه القصيدة فليجعل من قراءتها وقتا للتسلية

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ؟ على سالم عمار ٨ - ٤ - ١٩٣٧

كتاب الدكتور محمد مصطفى حلمى أستاذ الفلسفة والتصوف بكليه الآداب بجامعة فؤاد الأول وقد كان وقتئذ مدرس الفلسفة بكلية أصول الدين بالجامعة الأزهرية

. . . وصلني كتابك ومعه قصيدتك (الانسان الكامل) فاذا هما صورة صادقة لنفسك الصافية ومرآة مجلوة انعكس على صفحتها ما اشتمل عليه قلبك الكريم وكنت أرجو أن أوفق الى الرد على هذا الكتاب فى حينه ولكنها كلية أصول الدين وتدريس الفلسفة وابن الفارض وحب ابن الفارض . كل أولئك عوامل أثرت فى نفسى وتقسمت عقلى وملكت على شعورى وحسى . فاصبحت وأمسيت منصرفا عن الناس والاشياء وعما ينبغى القيام به نحو أمثالك من الأوفياء المخلصين ومهما يكن من شىء فها أناذا أكتب اليك اليوم :

لقد كان لشعرك أجمل الأثر وأعمقه فى نفسى حتى اننى وأنا أسمع هذه الالفاظ الرقيقة ، والمعانى الدقيقة ، كنت أشبه ما أكون بالروح الحائر المحلق فى السماء يلتمس مكانه والفه فى عالم الارواح ؛ فحينا يعلو وحينا يهبط وتارة يميل ذات اليمين وتارة ذات الشمال لفرط السكر وشدة الترنح

وهكذا أتاح لى كتابك لحظة من اللحظات الخالدة التى قليلا ما تعرض للنفس الانسانية التى اذا عرضت لها عاشتها هذه النفس فى سعادة وراحة وطمأنينة لاتشوبها شائبة طوال الاعوام التى تستوعب عمر الانسان

فهى لنا ماشئت من هذه اللحظات العزيزة على نفسى الكريمة لدى قلبي ، وابذل من هذه الرياضات الروحية التى تسمو بنا من عالم الشهادة الى عالم الغيب حيث السعادة الدائمة والنعيم المقيم وحيث تتصل الارواح ببارئها وباشباهها فى ظلال الملأ الأعلى الذى خرجت منه وصدرت عنه . والسلام ؟ محمد مصطفى حلمى

١٦ - ٤ - ١٩٣٧

كتاب السيد محمود صادق

. . . وبعد فقد استلمت خطابكم . وكأنه قميص يوسف الى يعقوب وأنى أشكر الله على ما أولاك من نعمة الفتح ؛ ولعمرى أنه ليبشرنا لك بالعطاء المطرد والمزيد

أما قصيدتكم (وحدة الوجود) فغاية فى البهجة والروعة . بالغة فى الجمال والدقة وليس لمثلى أن يصل لفهم ماحوت من المعانى الرقيقة والاشارات العالية . ولقد عرضت القصيدة على كثير من اخوانى المدرسين . فاعجبوا بها كما اعجبت . بل أن أحد اخواننا ممن لهم المام واسع بالتصوف ولبيتهم قدم راسخ فيه قد تطوع لشرحها . ولما فاتحنى فى ذلك أشرت عليه أن يتريث لانى خشيت أن يخرج عما تقصد من المعانى والاهداف واتفقنا أخيرا أن نكلفك بالشرح . ولا أخالك الا مجيبا

وأرجو الله الفتاح العليم أن يهيء لك الحال الصافى والفراغ الكافى وأن يمدك بروح من عنده حتى تتحفنا مرة أخرى بما هو جلاء للقلب . وبما يسمو بالنفس الى حظيرة القدس . وهو نعم المولى ونعم النصير .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ؟

١٢ - ٧ - ١٩٣٢

أخوكم

محمود صادق

وحدة الوجود

(هند) أنت المنى وانت المنايا ؟ نعمة أنت أم جماع البلايا ؟
تبسمى فى الخفا فتشرق روحى من وميض اللما وبرق الثنايا
وتذوب القلوب شوقا ووجدا بحلول الصفا وصقل المرايا

* * *

مظهر لاح فى رواء ومجلى وغنـــاء ولذة ومزايا
مشهد يجذب الخلى بهـاءا وبهـاء مطلسم بالخفايا
يسحر اللب والفؤاد ويلهو باسود الشرى فتمسى سبايا
فيه للعاشـقين لغـز خفى ومصون الجناب تحت الحنايا

* * *

خمرة تحتسى تغير مدام وتمسى العقول قبل الخلايا
فهى كالنـار والسعير لهيبا تأكل الغير والسوى والخطايا
كم لهذا الجمال صرعى وقتلى ونشاوى تهتكوا وضحايا

* * *

لو ازيح الستار عنـا لحنـا ذلك السر لاعناء ولايا
ظاهرات تشع نورا جليـا من سماء العلا بقصد هدايا
باسطات بكل شىء دليلا لخلاصى من القيود عسايا

* * *

هند شمس تبرقعت بحجاب عن مرائى العيان بين الطوايا
وهى روح الوجود اب المعانى قد تجلت تحائفا وهدايا
ياخليلى استفق (فهند) حياتى لاتناغى ولا تحب سوايا
كم لها منة على وفضل وسخاء ورحمة وعطايا

لو صفا القلب لارتقى لملاك   وسما فوقه وفوق البرايا
اتمادى على البعاد وتدنو   كل يوم شغوفة برضايا
اتغاضى تغافلا ودلالا   أو جحودا لها فتظهر آيا

* * *

كل مافى الوجود سر طريف   ومزامير كاهن وصايا
رتبتها بحكمة وجمال   وافتنان وجلوة وعنايا

* * *

قل لماذا تحجبت وتسامت   عن عيانى وادلجت بالخبايا ؟
قد تعبنا بكشف سر دقيق   دونه دائما حجاب الخفايا
تعب الكل فى تقصى أمور   لاتؤدى الى جلاء الروايا

* * *

فغموض يدق أثر غموض   تغتديه الشكوك رغم النوايا
نكتة يهرع الحكيم اليها   جاهد الفكر خاضعا لقضايا
والقضايا موصلات لأخرى   مع قياس ومنطق ومهايا
فاسترح أيها الحكيم ورفقا   من طويل العنا بجهد المطايا
فمتى كان للنهار دليل   والضحى واضح وشمس البرايا

* * *

ان فيض الوجود قصة حب   ذات قلب ورحمة وكفايا
فاستمع قصه الوجود بقلب   مرهف منصت لفهم النهايا
قصة الحب بهجة وانشراح   فى قلوب مطهرات الطوايا

* * *

نحن لحن الخلود فينا ومنا   آلة العزف مزهرا أو نايا
ولنا الحق قد تجلى وأجلى   وبنا صفحة الوجود مرايا

رب أنغام ذات نوع وروع	كلها مبعث لوحدة غايا

(هند) أضحت على الأريكة تشدو	وتنادى الخلود والوصل يايا
حسنها يرتدى الخمائل والخز	لها المجد والعلا والتحايا
أقسمت أنها بعيدة عنا	ماتبقى من النفوس بقايا
وهى منا طوى حقيقة كون	واليها المعاد مثل النهايا

الانسان الكامل

كل هذا الوجود أسفر عنى	فانا نسخة الوجود الأغن

* * *

أنا حق ، وصفحة الخلق حق	برزت فى ، فى بدائع فن
أنا فعل ؛ وفعل ربى عدل	ثم فضل ، له الرجاء والتمنى

* * *

أنا فى الوضع كالخيال ولكن	قدير انى العيان جرما بأين
نقطة الوهم، نكتة الفصل خط	فخطوط تلوح من وجهتين
هذه الشمس تجعل الظل رمحا	ثم من بعد ميلها رمحين
ذلك الظل فى الصباح ظلال	تتلاشى والشمس فوق الحزين
تشبه الثلج إذ يذوب ويفنى	فهباء لدى الالوهة كونى

* * *

فوجودى نشا نشوءا معارا	لست فى الاصل مستقلا بشأنى
وحياتى مفاضة من حياة	ذات فيض وذات علم لدنى

انما الحسن والجمال المفدى أبدعته يد لها كل حسن
قوة فى الخفاء ذات اقتدار ومليك منزه عن شين
عندما اشتاق وهو فرد غنى لمعة للصفات فى ذات عين
أخرج العين فاستجابت واضحت مطلع النور صنعة الكفين
وهى ان شئت قلت روحا ولطفا واذا شئت قلت جسم بغين
تتهادى تأرجحا بين نور وظلام لجمعها الصفتين

* * *

فهى بالروح قد تعانى المعانى جذبة الحب قبلة الخلين

* * *

لم أزل جامع العناصر فرد جوهر فى كثيف أو بين بين
لست فى شك اننى بعدمشدو د اليها وموثق فى تجنى
فاشتمالى على العناصر أدنى فهمها لى بجذوة العلم منى
واشتياقى الى معينى علاى بشعاع من الضياء اللدنى
وارتباطى مع الملا هز روحى للتعالى وللحظير الأغن

* * *

أنا حق ، لأننى ذو حياة ووجود وذو مقابلتين
أنا لوح ، وفى خط هجاء الف الحرف همزة الوصل منى
قلم النور خط قبل كتابى وهو يبدى مع المشيئة شأنى
صورتى للوجود مجلى وملق بجمع الضد مبعث للتغنى
صفحتى تطبع الحقائق فيها وأمامى أنا ، كمالى وابنى
بانطباعى على المرايا أرانى أنا نفسى وليس غيرى لعينى

* * *

حكمة للحكيم جاءت وفاقا ... فى وضوح ودقة وتأنى

غمرتنى جلائل العز والنو ... ر فاضحى يظن فى التبنى

ظلمونى اذ ألهونى ومالى ... غير ظل كذا العبودة قرنى

شرف الله بالمحبة قدرى ... وحبانى صفاته فهو حصنى

صرت موهوب بالاصالة مرهو ... ب مطاع وصار نوهى وعونى

* * *

وكفتنى لبابتى كل شىء ... فقضى لى بحبه كل دين

خضعت لى عوالم الكون لما ... أنست بى بنسبتى وبأينى

فى يدى الملك من جبال وسهل ... ثم مفتاح كل كنز وكن

قد تحكمت فى الخلائق طراً ... كل طير وكل وحش وجن

فانطوى لى الحديد كالطين حتى ... صار أهدى ولان سنا بسن

واهتبلت الدفين من معدن الأر ... ض فأنبا يقول أنى وأنى

واكتشفت القوى وجمعت منها ... كهرباء ومغنطيسا بفنى

ثم جبت البحار ظهرا وبطنا ... واختزنت العجيب فى طى دنى

وامتطيت الهواء مرقى ومسرى ... مركبا كالبراق للفوق يدنى

واتخذت الأثير بعد رسو ... لا صادقا كالأمين ينقل عنى

واعتزمت المسير للنجم لما ... قست ما بينه اقترابا وبينى

ثم لازلت أهتدى فى نجاح ... لارتياد السما بوقدة ذهنى

* * *

كلما خاطرى يواجه أمرا ... يتدلى كما أشاء وأعنى

كلها مدهشات يحسبها الغلف فعال السما أو اعمال جن

* * *

كيف لا والحبيب أيد نصرى ... أرسل الفيض فى سحابة مزن

أو لست الذى خليفة ربى ... قمت بالامر حيث ربى أذنى

وقد أختار أن أكون أماما ... فلى العرش والعلا والتمكنى

واجتبانى الى مقام فريد ... فوق طور الوجود والحب فنى

فرياحى اذا تهب شمالا ... أو جنوبا تحرك الوجد منى

لذة القرب جد تستوعب الدهــر كأن الزمان غمضة عين

موقف فذ فوق نقل وعقل ... لايرى فيه من شعور بكون

لحظات تمر بالقلب تبقى ... جنة العز والرضا والتهنى

حالة تربط الخلود بوصل ... محنة الحب صعقة الكونين

تلكم الحال لاترجى بصحو ... فهى تمحو الفروق بين اثنين

* * *

لاتقل كيف فالجواب سلام ... واغمض العين وامح رؤية غين

ان ترم صوغها حديثا وذكرا ... لم تزد فى الكلام عن حرفين

فالتجىء للشراب شوقا وذوقا ... تعمر القلب والسعادة تجنى

والتمس منه مايروق ويحلو ... مثل لون الزجاج لون اللجين

فهو ينبيك عندما تلعب الخمــر ويأتى الذهول عن طورين

ذاك تيار من أنين ووجد ... وهو موجات بين مد وغن

* * *

لغة الحب كالطلاسم لغز ... كهرباء تدب فى قلبين

قلما الترجمان يصطنع الشر ... ح ويرضى البيان فى لغتين

* * *

كل من رام للكمال مقاما ... فبلوغ السبيل بالحسنين

الحب والمحبوب

الحب عندنا أمل والحب علة العلل
بستان كرمى هيكلى وخمرتى هى الأزل
والـكاس قلبي يصطلى خمرا كـنار تشتعل

* * *

مرآة قلبي قبلتى اذا تصفت من زغل
منها وفيهـا أهتدى لفطرتى فأتصل

* * *

و (وهند) رمز نعمتى هىَ الجمال والمثل
(فداتهـا) مصونة عما يرى ويحتمل
وحيـــدة بعيـــدة عن الشبيه والبدل

* * *

ان رمت وصف كنهها لسان حالى ينعقل
الغيب نور حسنها والويل منها والوجل

* * *

أحن شوقا بالهوى أغيب حتى أنذهل
وبين حال سكرتى التى شهودى منفعل
سلطان حبي حاكم على الفؤاد والمقل
فجوهرى وهيكلى يفنى بهـا بلا مهل
ودهشتى تسوقنى فى حب هند للخطل

* * *

وثم حال عاطفى موحد ومكتمل
ذوقى يقول أنها · أضحت أنا وما أشتمل
مشاعل يشعهـا نور الحبيب والغزل
مواجدى مباهجى وصل يطيب بالقبل

* * *

العقل منى حائل وحاسم بلا دخل
فما أنا كعينها قطعا كلانا منفصل

* * *

أما السوى ففيضها وحادث ومفتعل
وذاتها فريدة مفيضة لما حصل
حكيمة رحيمة قديمة هى الأزل
عليمة مريدة قديرة بلا مهل
كل له حقيقة مثلى وذات مستقل
فالفرق بون شاسع أعلا ابتعاد من زحل
حواجز موانع هيهات عنا ترتحل

* * *

لـكننى بحبها أفنى فناء لم يزل
وأينما طلبتها على شعور مكتمل
ماخلت انى غيرها والبين عنا منعزل

* * *

حقيقة دقيقة والـكل فيها متصل

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المبدىء المعيد . واهب الفضل ومفيض الوجود . والصلاة والسلام على النبي المربي الطاهر الزكي . الذي أعلا منار التوحيد بالعلم السديد . لينهل منه العارف الرشيد وعلى آله وصحبه والتابعين ومن تابعهم باحسان الى يوم الدين . مافنى محب عن الوجود

أما قبل : فقد كان أخي الأستاذ السيد محمود صادق محروس مدرسا للحساب بمدرسة أبي كبير الابتدائية منذ سنة ١٩١٣ م وكنت أحد تلاميذه الذين توثقت بينه وبينهم عرى الصداقة والمحبة . ثم ازدادت بعد ذلك روابط المودة توثقا حينما تتلمذت على أستاذه في طريق الصوفية (الشيخ سليمان على ربيع الشهير بسليمان فوزى) الشاذلى القاوقجى رحمهما الله وجزاهما عنى خير الجزاء

كان السيد صادق من المولعين بالشعر والأدب علاوة على انغماره في التصوف ودقته في أداء الواجبات من تلاوة الاحزاب والأوراد والذكر . وبماورثت عنه ولعى بالشعر ومحاولتى للنظم . وصار هو كذلك يشجعنى في هذه الناحية ويرشدنى الى مايستفيد منه الطالب من المطالعة في بعض الكتب الخاصة بالعروض والقوافى ودواوين الشعراء وكتب الأدب . ولكن أنى لطالب بالمدارس الابتدائية أن يلم بها وان يستفيد منها فائدة تمكنه من الخوض في هذا المضمار ؟ ومهما يكن من أمر . فهناك هذا التصوف الذى سرت معه . فاغتباطى وتقديرى لشعر ابن الفارض والبهلول والجعبرى مما ترتله المنشدون على مجالس الذكر ، وشغفى بقراءة ماقد تيسر لى من شعر ابن عربى وغيره من شعراء الصوفية جعل للشعر حالة في نفسى وخاطر في ذهنى وفكرى ومالى لا أقول الشعر وقد سمعت (اتقوا الله ويعلمكم الله) وعرفت أن كثيرا من هؤلاء الشعراء لم يكن لهم معلمون يدرسون عليهم العروض !

نظمت شعراً ، وكنت كلما أنظم شيئا أعرضه على السيد صادق فيصححه ، وكلما انظم شعرا صوفيا أعرضه عليه فيستحسنه ؛ وفي يوليو سنة ١٩٢٢ م كان يشتغل بمدرسة

المحمودية الابتدائية وكنت منذ زمن بعيد أعمل بالتجارة ، فارسلت اليه القصيدة المسماه (وحدة الوجود) والتى مطلعها :

(هند) أنت المنى وأنت المنايا ؟ نعمة أنت أم جماع البلايا ؟ (١)

وجاءنى منه رده المنشور بصدر هذا الكتيب والذى كلفنى فيه بشرحها ؛ ولشد ما كانت رغبتى أكيدة فى سرعة انجاز ماطلب ولكن مشاغلى الكثيرة وأعمالى الخطيرة حالت دون الاجابة السريعة ، ومرت أعوام خمسة تقريبا كنت خلالها أحاول المرة بعد الأخرى ولم أوفق بسبب كثرة أعمالى التجارية وما تضطرنى الى الاسفار وما ترهقنى به من الهموم والأكدار فى أحيان كثيرة تبعا لتقلبات الأسعار وكساد السوق

ثم جاء وقت أكدت فيه الشروع فى الشرح وجلست الى نفسى عاكفا على التفكير فى الموضوع للالمام بنقاطه ونطاقه ، ولكننى ما لبثت أن وجدتنى أمام مشاكل عويصة الحل ومسائل شائكة المدخل ؛ وموضوع يصعب على أى كاتب تحديده اذا أراد الأبانة عنه على وجهه الأكمل . والكشف على دقائقه ومراميه فى صورة سهلة مبسطة وفى عبارة سلسلة فأمامى عقائد دينية ، وأمامى أراء ومذاهب فلسفية ؛ وأمامى مفاهيم دوقية تصوفية وأحاسيس وجدانية روحية . لابد لها كلها من وقدات ذهنية خارقة . قد لا أجدها فى كل وقت أجلس للشرح فيها خصوصا اذا أصبح الصباح ودخلت الى دوائر الاعمال والاسواق ؛ وغير هذا وذاك فقلما يستسيغ القارىء الجمهورى . أو القارىء البسيط الذى لايلم الماما كافيا بكل هذه المواضيع وأن يفهما تمام الفهم . ولابد لى اذ أشرح أن أكون مفهوما . وألا فما فائدة الشرح الذى يحتاج الى شرح آخر . وما قيمة الكلام الذى لا يقوم على بساطه التعبير وحسن الاداء وجودة البيان ، وكل همى أن أؤدى هذه الرسالة الى جمهور الأحباب والاخوان كما هو المرجو من التكليف الذى أراده السيد صادق . عكفت طويلا تتجاذبنى هذه الخواطر ؛ ووددت لو وجدت لدى القراء من المشارب والأذواق والالمام ماينصفنى لديهم . فان الكثير فى مسائل التصوف عويص ومعقد والكثير من الآراء الفلسفية فاسد وملفق

---

(١) نشرتها مجلة المعرفة بعدد أغسطس سنة ١٩٣٢

حسبنا فى الدقة ماهناك من الفروق الشكلية والجوهرية مما يقال عنه بين الحس والعقل . أو بين العقل والقلب . أو بين القلب والروح أو بين الروح والسر ، وهذه مسائل لايحل بالدليل الجدلى أو البرهانى وهناك مسائل لاتستطيع كل هذه الآلات والأدوات أن تؤمن بها ، وتحال الى الروح لتحكم حكمها فيها . وأخيرا قد تؤمن الروح بغير جدال أو برهان . فاذا كان للروح السلطان الذى يسيطر على هذه الأدوات والآلات فانها تؤمن كذلك . والا بقى النزاع قائما

خالج نفسى هذه الخواطر . ثم هجم على شعور باطنى ذاتى ذلك الذى يهجم على نفس الصوفى . فملك على شعورى وسيطر على حواسى فتسامت نفسى الى الملأ الأعلى تسبح فى عالم النورانى وتتسامى الى معين الكمال تتلمس المثل الانسانية العليا الكاملة ، وماهى الا لحظات أدركنى من فورها النوم العميق ثم استيقظت استمع لنفسى ولسانى ينطق هــــذا الشعر :

كل هذا الوجود اسفر عنى فأنا نسخة الوجود الأغن (١)

هذه رؤيا منام . أفقت عندها أردد البيت واستعذب معناه . ثم قيدته ، وأديت صلاة الفجر وكنت منهوك القوى مزدحم الأفكار فعادت الى فراشى حتى أدركنى النوم من جديد واستيقظت من بعد قبيل الظهر فهرولت الى عملى وتناسيت ليلتى الماضية وما كان فيها وبعد بضعة أيام أردت العود الى موضوع الشرح فعاد معى الشعر من جديد فاشتغلت أفكارى به ونظمت النظم على هذه الوتيره ثم تفكرت قليلا عندما فرغت من الشعر وصرت أخاطب نفسى (لقد فسرت الماء بالماء)

ثم قلت لنفسى حقا ان الصوفية مغلبون على أمرهم وليس فى استطاعتهم أن يحددوا أفكارهم أو أن ينظموا أحوالهم . فما دامت هذه الافكار تهبط عليهم من خارج فوق طورهم . تملكهم الاحوال ولا يملكونها . فطوبى لمن ملكه الحق فسدد خطاه ، وعفاء على ملكته نفسه فاورده الشيطان مورد التلف والبوار

ان للقلب حركات تعلو على الحس وان للروح لمعارج تدق عن السر ، وان رحمة الله قريبة من المتقين

(١) هذا مطلع القصيدة المسماه (الانسان الكامل)

أما بعد : فماذا أقول بعد هذا . وبماذا أتكلم . وهذا عصرنا حافل بالعلماء والأدباء والكتاب الذين تخصصوا فى هذه البحوث وقدموا فيها الشروح على ضوء العقائد وأصول الدين وعلى ضوء المنطق والفلسفة ، وعلى ضوء الكشوف العلمية الحديثة ومنهج البحث الحديث . اللهم انى عاجز عن الاتيان بجديد ولا أزعم انى سأجلو الغامض أو سأحل هذه المشاكل اذا تكلمت . ولكنى استجابة للرغبة وحرصا على الوفاء فقط سأكتب للاخوان وللاحباب موجزا مما قرأت فى الموضوع . اما شعرى فسيظل لذيذا كما كان حلما لذيذا يضرب على أوتار القلوب الغارقة فى المحبة يبعث فيهم البهجة والفرح والسرور

وموضوع الشرح هو موضوع الروحية والتصوف قبل أن يكون كلمات والفاظ لغوية ذات معانى بيانيه أو بديعيه . فانالصوفية لايهمهم هذه النواحى ولاتتأتىلهم الا اذا كان المقصود منها الرمز والاشارة . كما أنها لاتعجب أهل الأدب الصرف كما يقرر الأستاذ الأكبر المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق فى كتابه لى .

وعلى هذا أصبح موضوعى قبل كل شىء هو موضوع الروحية والتصوف . والتصوف الآن ينصرف معناه الى معانى شائعة هى المفهوم الشعبى والى معانى علمية وحقائق بدائية كامنة فيه وتتناوب هذه المعانى وتلك الظهور ثم تسود كل منهما على الأخرى بين فترات الانحلال والانحطاط والتدهور والجهل وبين فترات الأزدهار والفهم الصحيح والتحقيق العلمىالمصحوب بالتدين ، وهو فى كل حالة من الحالات وفى كل طور من الاطوار يتلون بلون العقيدة وبالمذاهب السائدة فى البيئة وفى العصر ، وأرانى حينئذ مضطرا لبيان التصوف الذى أعنيه

أما المفهومالشعبى الشائع للتصوف فهو ربط عقلية المرء بسكان الأضرحة والقبور وقبول وساطة الشيوخ بل ان السلطة الآلهية تتمثل فيهم ، ففى قدرتهم أن يغيروا وأن يبدلوا من الاحداث وفق اراداتهم ، لذلك تجد الجمهور الذى ارتسم فى نفوسهم هذا المفهوم يلتمسون العون من الشيوخ أحياء أو أمواتا ويستدرون من بركاتهم الخير وقضاء الحوائج فهم يردون الغائب والضائع ويزيدون فى بركة الزرع والضرع ، حتى انك

لتجد من الجمهور من يجعل لهم حقا فى الأرزاق والأموال ويعتقدون فيهم التحكم فى مصائرهم لأن لديهم من علوم الغيب ماليس لدى الناس فتمتمتهم مناجاة وغمغمتهم استنزال الالهامات فى قوة الوحى أو القريبة منه وكذلك أوهم دعاة السوء والدخلاء والمشعوذين البسطاء والسذاج بهذه الفعال أنها كرامات أوفوق الكرامات ؛ ولم يكلف الناس أنفسهم عناء البحث والتفريق بين الشعوذة والتنجيم وبين الكرامات فاختلط الأمر عليهم وحسبوه لباب التصوف والدين وليت الامر وقف عند هذه الحدود بل تغالى بعض الدراويش فادعوا ان الله فضلهم على عبادة وآثرهم عليهم وأباح لهم ماحرم على غيرهم فتجرأوا على فعل المناكر والمخازى تحت ستار التصوف والدين ، وكل هذا مخالف لصريح الامر والنهى ومخالف للمعقول والمنقول ولظاهر الشرع وباطن الاحكام ومنافى لروح الاسلام وبعيد عن مرامى الدين وعقيدة التوحيد ، ينكره التصوف الصادق ويحمل عليه أشد الحملات ويبرأ منه لانه ليس منه لافى كثير ولا فى قليل فلا هو فى الاصول ولا فى الفروع ،كل هذا بلاشك أثر من أثار تعاليم الشيعة وعقيدتهم وقولهم فى الإمام

وليست أمثال هذه الفعال جديدة وليس أمر الدخلاء والمشعوذين جديدا بل قد فشى فى التصوف من قبل وتبرم به القوم وشكوا منه مر الشكوى فهذا الاستاذ القشيرى المتوفى سنة ٤٦٥ هـ رحمه الله ينعى أمر الدخيل وكثرته والطريق وما اندس فيه ويحذر الناس ان يعتقدوا ان التصوف بنى أصوله على هذه الفعال أو على أشباهها فيقول فى رسالته : اعلموا رحمكم الله ان المحققين من هذه الطائفة قد انقرض أكثرهم ولم يبق غير أثرهم كما قيل شعرا :

أما الخيام فانها كخيامهم وأرى نساء الحى غير نسائها

حصلت الفترة فى الطريقة ؛ لا بل اندرست الطريقة بالحقيقة ، مضى الشيوخ الذين كان بهم اهتداء ، وقل الشباب الذى كان لهم وسنتهم اقتداء ، وزال الورع وطوى بساطه واشتد الطمع وقوى رباطه ؛ وارتحل عن القلوب حرمة الشريعة فعدوا قلة المبالاة بالدين أقوى ذريعة ، ورفضوا التمييز بين الحلال والحرام ، ودانوا بترك الاحترام والاحتشام ؛ واستخفوا بأداء العبادات واستهانوا بالصوم والصلاة ، وركضوا فى

ميدان الغفلات ، وركنوا الى اتباع الشهوات وتعاطى المحظورات ... ثم لم يرضوا بما تعاطوه من سوء هذه الفعال . حتى أشاروا الى أعلا الحقائق والأحوال ، وادعوا أنهم تحرروا من رق الاغلال ، وتحققوا بالوصال

أشفقت على القلوب أن تحسب أن هذا الأمر (أمر التصوف) على هذه الجملة بنى قواعده ، وعلى هذا النحو سار سلفه فعلقت هذه الرسالة اليكم أكرمكم الله

أرأيتم أيها الأحباب كيف وصف القشيرى رحمه الله تطور الحال وسوء المآل فما بالنا وقد مضى من الزمن تسعة قرون ، وكم جد خلالها من أفكار وآراء وكم ظهرت من مذاهب ومتاعب وكم تغيرت الاتجاهات بذيوع كثير من المعتقدات وكم حدثت من فتن وضلالات . فحق للناس أن يتبرموا وحق للعارفين أن يشفقوا وناهيكم بطغيان العلم الحديث وتأثره بوسائل العقل وطغيان المدنية الحديثه وتأثرها بالنزعة المادية التى أصبحت تسيطر على الافكار الى درجة العبادة وغير هذا وذاك ما كان من نقد الفقهاء والمتكلمين والمتفلسفين وعلماء الاجتماع كل هذه عوامل ذات أثر كبير كانت ولا تزال حربا على التصوف والصوفية ، ولكن مع كل هذه الظروف رأينا أنه كلما ازداد البحث العلمى على ضوء اصالة الرأى وحرية الفكر وبعد الغرض لا تزال نزاهة العلم وروحه الشفافة تكشف لنا جوانب قوية هدت اليها التجارب تزيد اليقين بنزاهة علم التصوف ومقدرته وتضفى عليه معانى جديدة يفهمها الجيل الجديد بوسائله الجديدة وأساليبه الحديثة حتى ليوشك الباحثون فيه من العلماء أن يقعوا فيه كلما حاموا حوله . لان انظمته الجذابة وما فيه من لطف الاحساس وشريف العاطفة لا يمكن التحرز منه

كثير من الناس يخشون كلمة الروحية وخاصة المتعلمين ودعاة الاصلاح وقد يرون أنها ضرب من الرجعية وأثر من آثار القرون الوسطى والذى دعاهم الى ذلك انه اذا ذكرت الحياة الروحية ذهب خيالهم الى الاديرة وسكانها والتكايا والمنقطعين اليها ، ورجال الذكر والموالد والمشعوذين من رجال التصوف والدجالين والمنجمين وأمثالهم ممن هم عالة على الناس . فهذه هى الروحية المزيفة

انما نعنى بالحياة الروحية حياة تؤمن بان هذا العالم ليس مادة فحسب وان سيره

لايمكن ان يفسر بقوانين (داروين) وحدها من الانتخاب الطبيعى وبقاء الاصلح . فان هذا ان صلح تفسيرا للتطور فان يصلح تفسيرا لحياة الخلية ، وحياة العالم

ففينا بجانب المادة روح ، وفى الاحياء روح ، وفى العالم روح ، والله من ورائهم محيط ، وهذا الروح الاعلا الذى أودع العالم قوانينه ونشر فيه جماله ، واتصال الانسان بهذا الروح يسمو به ويعلى من شأنه ويرفع من ذوقه (١)

وأن ظهور الكشوف العلمية من الكهرباء ومن الاشعاع الذرى وكذلك ظهور بعض النظريات الفلسفية المعتدلة تكاد اذا فهمت منها صحيحا وطبقت على العقيدة الدينية أن تزيد المرء فى التعرف على الله وفى التعلق بالتوحيد ثم تقوى ايمانه بحكمة الدين والاستزادة من طلب السمو الروحى (٢) وكثير من المتعلمين والمأخوذين بكفاية العلوم الحديثة ان ارتقاء العلوم كفيلة بسلامة الناس وطمأنينتهم ونشر السلام العام لان الاديان فى هذا الزمان قد فشلت عن كبح الشرور والحد من عوامل الفتن والفساد . لذلك انحرفوا عن الدين الى الفلسفة والعلوم وأهملوا طلب التخلق بالكمالات الدينية وظنوا ان انحرافهم هذا سيحقق لهم السلامة والسلام

ولاشك ان رفع المستوى الروحى أهم الوسائل لخلق الشعوب وسلامتها والوصول بها الى قمة المجد ، وقد القى علينا التاريخ دروسا خالدة ، وقصاراها أن هبوط المستوى الروحى لايجدى بجانبه ارتفاع أى مستوى آخر بشتى نواحى الحياة . وغايتنا من السمو الروحى وتربية النفس لكى نطمع للمجتمع فى حياة طيبة كريمة يظلها الخير والتوادد والتراحم . فنحن لانطمئن الى الثروة تتقلب بين الايدى ، ولا الى العلم يكثر فينا المهرة والمتخصصون ، ولا الى الصحة تشتد بها السواعد وتسلم الابدان . فكل هذه القوى جديرة أن تتلاشى وتتخاذل وأن تنقلب شرا وبيلا اذا نزلت الناحيه الخلقية الى الحضيض (٣)

---

(١) الدكتور احمد امين بك كتاب فيض الخاطر

(٢) المرحوم الاستاذ عبد الله حسين (كتاب التصوف والمتصوفة)

(٣) معالى محمد العشماوى باشا نائب رئيس رابطة الاصلاح الاجتماعى ووزير المعارف السابق - بمجلة الفجر الصادق عدد رجب ١٣٦٥

ولا أعتقد أن التقدم العلمى والفلسفى بقادر على التغلب على هذه العوامل فقد شاهدنا ان الحروب تزيد هولا ووحشية كلما ازداد تقدم العلم وانه امضى سلاحه

والمتدين حين يعالج هذه المشكلة يجب أن يذكر أن الأديان كلها اعتمدت على أصل راسخ من غريزة التدين دفعته الى الثقة بان العالم مجموعة متناسقة تسودها قوة حكيمة مدبرة عادلة ترقب النيات وتحكم الضمائر وان هذه الحياة صائرة الى غاية المسئولية والمجازاة ويجب أن يكون المهيمن على عمل الانسان من داخل الانسان وهو خوف الله

ان الخطر الذى يداهم البشرية والانسانية لايجىء من أديان المخالفين وانما يجىء من الالحاد ومن المذاهب التى تقدس المادة وتعبدها وتستهين بتعاليم الاديان وتعدها هزوا ولعبا ، وان ما نال الانسانية فى عصور التدين من شرور وما قعد بها عن بلوغ الامل المرجو فى السلام الروحى ليس لشىء فى طبيعة الدين بل لانحراف فى اتجاه الشعور الدينى فالشعور الدينى يرفع الانسانية الى فوق الاعتزاز باللون والدم والجاه والطبقة والثروة . وهو صالح لان يغلب الحقد والحسد والانانية وفيه من تطمين النفس ما يقلل بطرها بالغنى ويهون عليها الفقر . ويخفف عنها ثورتها عليه

والشعور الدينى يكرم النفس الانسانية ويحدوها الى المعرفة والحكمة ويكره اليها الجهل والحمق (١)

والدين هو ماصبته الصوفية حارا فى النفس الانسانية ثم يبرد تبريدا حتى يتبلور وبهذا يستطيع الجميع ان ينالوا قليلا مما يتمتع به هؤلاء الممتازين . لذلك هم يكشفون للناس دائما عن أفق عجيب (٢) وكثير من المتعلمين يقولون ان العبادات والاشتغال بها عمل لاطائل تحته غير ضياع الوقت سدى فهم لايهتمون بأدائها ويعملون على الاستزاده فى العلوم والاخذ بوسائل الصناعات والتقدم من المدنية الحديثة ، ولاشك أنهم أشقياء بهذه الافكار الفاسدة وغير موفقين .

---

(١) المرحوم الاستاذ الاكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى فى خطابه لمؤتمر الاديان المنعقد بلندن سنة ١٩٣٦ ونشرته الاهرام بالعدد ١٨٥٣٣

(٢) هنرى برجسون كتاب منبعا العين والاخلاق

يظن ظانون ان المساجد اصبحت أكثر من حاجة الناس ، وان انتفاع الأمة من هذه الجوامع المتناثرة فى شوارع المدن وأزقة القرى ليس بذى شأن كبير ، ويظنون أن الدعوة الى التردد على المساجد دعوة الى التكاسل والتواكل . وينسى هؤلاء أن المساجد مبعث سكينة روحية وفيها من هدآت الخشوع والجلال الدينى ماهىء للتفكر والذكر ملجأ للنفوس اذا ساورها هلع الحياة واضطرابها وانا فى زمن تصارعت فيه المبادىء التى يقوم عليها السلوك الانسانى وتصارعت النظم التى توجه الحياة الاجتماعية حتى لكاد يتزلزل من أركان الحضارة البشرية ، وانا لنخشى أن تتردى الاجيال الناشئة فى هاوية من الشك والقلق والجموح ليس لها قرار . فحق لكل مصلح أن يهيب بالشباب أن يتحصنوا من هذا البلاء الداهم بسويعات يقضونها فى بيوت الله للذكر والعبادة ؛ وتفكر ساعة خير من قيام ليلة كما يقول الحسن البصرى ، وعن فضيل بن عياض : (الذكر مرآة تريك حسناتك وسيئاتك) ويقول سفيان بن عينيه (التفكر مفتاح الرحمة الا ترى أنه يتفكر فيتوب) وقيل لابراهيم بن أدهم (انك تطيل الفكرة قال الفكر مخ العبادة) أما الذكر فان الله عزوجل يقول (الا بذكر الله تطمئن القلوب) (١)

أما المدنية الحديثة فانها تؤله المادة وتعبدها . فالى الآلات الصناعية تتجه الانظار واليها ترفع أكف الدعاء ، وأياها يعبد أرباب الاموال ولها يستعبد العمال ، ومنها تشتق المبادىء السياسية والتعاليم الاخلاقية ، وبقوتها تستعبد الأمم وتثار الحروب وتطعن فى الصميم الاخوة الانسانية مما نسميه الآن ديمقراطية وفاشية واشتراكية وشيوعية مؤسسة عليها وناظرة اليها . حتى أن النظريات الاقتصادية مشتقة منها ومتفرعة عنها . والانسان يشقى بهذه الآلات لتأليها ، وكانت ستكون نعمة عظمى ومصدر سعادة كبرى لو نظر اليها فى ضوء وحدانية الله وتأليه الله وحده وما تستلزمه من اخوة انسانية (٢)

---

(١) الاستاذ الأكبر المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق فى خطبته فى افتتاح مسجد المنتزه بالاسكندرية بين يدى جلالة الملك فاروق حينما كان وزيرا للاوقاف فى جمادى الاولى سنة ١٣٦٤ — (٢) مجلة الثقافة

والصوفية يحاولون الاتصال بالجناب الاقدس لمعرفة الاسرار الروحانية والكونية ويتقلونها الينا فلا يكاد الصوفى يهبط علينا حتى يشعر بالحاجة الينا يعلمنا ان العالم الذى ندركه وان كان حقيقيا فان ثمة عالم غيره لايدرك بالبرهان العقلى بل هو يقينى يقين التجربة وهو يحس بالحقيقة تنحدر من منبعها فلا يستطيع ان يمنع نفسه عن نشرها فالتصوف حالة تشعر النفس فيها أو تعتقد انها تشعر بانها فى حضرة الله أنيرت بنوره وهى حالة تسمو بالنفس الانسانية الى مستوى آخر يضمن للنفس الامن والطمأنينة ولو على صورة اسمى من ذى قبل فالتصوف عمل وخلق وحب (١)

وبعض علماء النفس يقول : ان النفوس العالية مركبة عالمية متصلة الاسباب بسر الوجود الخفى التى تتوق الانسانية لاجتلائه . فنحن نستعين بها على فهم اسرار نفوسنا واستجلاء غوامضنا ومعرفة خفايا الكون التى تحف بنا من كل جانب وكأننا نقترب بها على فهم الكون غير المحدود ونتأمل الافلاك السابحة والاكوان الصغيرة المليئة بالاسرار والغرائب التى ينطوى فيها العالم الاكبر ، وقد قيل فى صاحب هذه النفس :

وتزعم انك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

واما محبة الله

ولعمر الانصاف ان هذا مقام يجب أن تتكسر فيه الاقلام وتخرس الالسن فلن تطيق شرح نعمة واحدة من نعم الله (وان تعدوا نعمة الله لاتحصوها) . أحس بهذه العظمة المدهشة وذلك الانعام الفائض على كل الوجود ذلك الرجل العظيم صاحب النفس المطلقة من القيود الفيلسوف العالم الفرنسى (لينيه) الذى كان يدعوه وجدانه فيجيبه ويناجيه شعوره الحى فلا يتغافل عنه وهو عندى مؤمن حقا لامحالة حيث قال :

ان الله الازلى الكبير . العالم بكل شىء قد تجلى لى ببدائع صنائعه حتى صرت مدهوشا مبهوتا . فاى قدره ، وأى حكمة وأى ابداع أو دعه مصنوعات يده لا فرق بين

(١) هنرى برجسون فى كتاب منبعا للاخلاق والدين

اصغر الأشياء وأكبرها . أن المنافع التى نستمدها من هذه الكائنات تنبىء بواسع حكمته وكذلك حفظها من التلاشى وتجددها يشعر بجلاله وعظمته (١)

فما هو اذن التصوف ومن هم الصوفية ، ومن هو الصوفى ، ومن هو الولى ، وماهى الكرامات ؟ التصوف هو الكمال فى الدين والكمال فى المعرفة (٢)

التصوف مبنى على الايمان والصدق والاخلاص فهو العلم الذى يصور المثل الخلق الاسلامى الاعلى (٣) ، وفى مختصر ابن عبدالبر المتوفى سنة ٤٦٣ ه قال سفيان : كتب مكحول انك أمرؤ قد أصبت فيما ظهر من علم الاسلام شرفا ، فاطلب بما بطن من علم الاسلام محبة وزلفى

ولما اتسعت انظار الباحثين فى العلوم الدينية ودقت همهم الى الكلام فى أصول الدين بعقولهم ولطفت أذواق المراقبين منهم لمعانى العبادات وحركات القلوب . أخذ التصوف يتسامى الى نظرية فى المعرفة وسبيل الوصول اليها وهذه النظرية على مابينه الغزالى فى الاحياء هى السعادة التى وعد الله بها المتقين هى المعرفة والتوحيد . وأما العبادات فانما مراد الطاعات كلها واعمال الجوارح هو تصفية القلب وتزكيته وجلاؤه (٤)

كانت الجماعة الاسلامية الاولى تقوم فى المدينة على هيئة اخوة روحية بين المؤمنين حلت محل القبيلة والاسرة والتصوف الاسلامى هو استعادة هذه الحياة المشتركة لاصحاب خيرهم المشترك وصلواتهم الجماعية يسلكان بالجماعة كلها الى الله بوسيلة الحب لاقتناص المعرفة بالاقتداء بمحمد ﷺ وكذلك ببقية الانبياء صلوات الله عليهم (٥)

هذه معانى خاصة واطلق بعض العلماء على التصوف معنى عام فقال :

---

(١) الاستاذ المرحوم الشيخ يوسف الدجوى بالعدد الرابع من مجلة الازهر سنة ١٣٥٦ ه — (٢) الاستاذ الاكبر المرحوم الشيخ مصطفى عبدالرازق — (٣) المصدر نفسه بجريدة السياسة الاسبوعية ١٨ ربيع الاول ١٣٥٦

(٤) الاستاذ الاكبر المرحوم الشيخ مصطفى عبدالرازق فى تعليقه على مادة تصوف بدائرة المعارف الاسلامية الترجمه العربية

(٥) الدكتور عبد الرحمن بدوى فى كتابه الانسانية والوجودية

التصوف هو كل عاطفة صادقة مثبتة الاواصر قوية الاصول لا يساورها ضعف ولا يطمع فيها ارتياب وهو خليق بان يصحب كل نزعة شريفة من النزعات الوجدانية التى تكمل الصدق والاخلاق بحيث لا تملك نفس ان تتصرف عما آمنت به واطمأنت له من عالم المعانى ، ويتمثل فى صور كثيرة . فيكون فى الحب ويكون فى الولاء ويكون فى السياسة متى قامت على مبادىء تتصل بالروح والوجدان (١)

والمتأمل فى حياة الصوفية يلاحظ انها تنطوى فى العادة على معنيين رئيسيين احدهما : معنى عملى يتمثل فيه السالك نفسه من الوان الرياضات وضروب المجاهدات والمرآة التى تنعكس على صفحتها هذا المعنى : هى المقامات التى تترقى فيها النفس مقاما بعد مقام ترقيا . غايتها فى النهاية الوصول الى درجة العرفان

وثانيهما : معنى ذوقى روحى هو هذا الذى يحصل فى النفس ثمرة لرياضتها ومجاهدتها فاذا هى تصنو شيئا فشيئا وتخلص من شوائبها رويدا رويدا فاذا هى تستحيل آخر الامر الى روح صافية فتية كما كانت قبل أن تهبط من عالم الامر الى هذا العالم السفلى بما فيه من أكدار المادة وعوامل الفساد

والمرآة التى تنعكس على صفحتها هذا المعنى الذوقى الروحى : هى ما يعرض للنفس من أحوال ترد عليها حينا وتتحول عنها حينا آخر وما تزال هذه الاحوال بين اقبال على النفس وادبار عنها حتى تستقر آخر الامر حال يغلب عليها ويوجه حياتها الروحيه فاذا هى تشرق بنور الحق وتعمى عن رؤية الخلق . هنالك تكون النفس قد وصلت الى اسنى الاحوال وتكون قد شاهدت بعينى البصيرة كل ما الوجود من آيات الحق والخير والجمال (٢)

اما صفات الصوفية : فكما وصفها الكلاباذى المتوفى سنة ٣٨٠ هـ فى كتابه الفقر فى التصوف حيث قال فيهم . جعل فيهم صفوة واختيارا ونجباء وأبرارا . سبقت لهم من الله الحسنى والزمهم كلمة التقوى وعزفت بنفوسهم عن الدنيا . صدقت مجاهداتهم

(١) الدكتور زكى مبارك فى كتابه التصوف الاسلامى وصلته بالادب والاخلاق
(٢) الدكتور محمد مصطفى حلمى ابن الفارض والحب الالهى

فنالوا علوم الدراسة ، وخلصت عليها معاملاتهم فمنحوا علوم الوراثة ، وصفت سرائرهم فاكرموا بصدق الفراسة . ثبتت اقدامهم وزكت نفوسهم وأنارت أعلامهم وجالت حول العرش أسرارهم . فهم أجسام روحانيون وفى الارض سماويون ، وفى الخلق ربانيون . سكوت نظار غيب حضار . ملوك تحت أطار . انزاع قبائل واصحاب سرائر وانوار دلائل . آذانهم واعية ، واسرارهم صافية و نفوسهم صوفية نورية صفية ، ودائع الله بين خليقته وصفوته فى بريته

من هو الصوفى

والآن ماهى هذه الصفات التى اكتملت لزهاد المسلمين التى استحقوا من أجلها أن يسموا صوفية حقا ؟ هل نلتمس هذه الصفات فى طريقة القوم ومسلكهم الى غاياتهم أم نلتمسها من الحالة النفسية الخاضعة فى اسمائها واتفقوا بالرغم من تباين مللهم ونحلهم فى وصفها وفى انها لازمة للطريقة لزوم النتيجة للمقدمات ؟

أم فى الغاية يسعى الصوفية جاهدين فى الوصول اليها ؟ أم فى هذه الصفات مجتمعة ؟

الحق ان التصوف لايكمل الا بهذه العناصر الثلاثة مجتمعة غاية معينة ، وحالة نفسية ينكشف فيها للصوفى تحقيق هذه الغاية ، وطريقة خاصة يسلكها لكى تورثه أو تنتج اليه هذه الحالة النفسية

فاذا وقف شخص عند الطريقة ولم يصل الى غايته لم يكن صوفيا ، وذلك كالزهاد والذين تعبدون الزهد غاية فى ذاته ، ولا يطمعون فى الوصول الى شىء آخر غير الطريقة واذا حقق شخص فى نفسه تلك الحالة النفسية الخاصة بطريق آخر غير التصوف المحدود بشروط وقواعد وأعمال لم يكن صوفيا وذلك كالمحبين والو الهين وكعباد الطبيعة أو عشاق الموسيقى أو أى نوع من أنواع الجمال والفنى وكبعض المشعوذين فان هؤلاء قد يكون لهم أحوال أشبه باحوال الصوفية وليسوا منهم فى قليل أو كثير

يتضح لك اذاً انه لابد من اجتماع هذه الثلاثة فى حياة الصوفى لكى يكون صوفيا حقا كما يتبين انه لاغنى لاحدى هذه النواحى عن الاخرى اما الطريقة فهى رياضة

النفس ومجاهداتها وقمع لذاتها ومحاسبة الضمير وتصفية القلب من الكدرات ومن كل ماسوى الله . اما الحالة النفسية فهى التى يسميها الصوفية حالة الجذب أوحالة الاشراق أما الغاية فهى الوصول الى الله (١) ومن أحسن ماروى عن صفة العارف ماقيل فيه :

العارف هش بش ، وهو فرحان بالحق وبكل شيء فانه يرى الحق فيه ، العارف شجاع كيف لا وهو بمعزل عن تقية الموت ، وجواد وكيف ولا وهو بمعزل عن حب الدنيا ، وصريح وكيف لا وهو بمعزل عن محبة الباطل ، وصفاح وكيف لا وهو يرى نفسه أكبر من أن يحرجها ذلة ، ونساء للاحقاد وكيف لا وذكره مشغول بالحق (٢)

من هو الولى

الولاية ـ مادة ولى فيما يرجحه أئمة المفسرين كالطبرى والزمخشرى والرازى . تولى على معنى القرب فولى كل شيء القريب منه ، والقرب من الله بالمكان والجهة محال

فولى الله من كان قريبا منه بالصفة التى وصفها أى الايمان والتقوى ، واذا كان العبد قريبا من حضرة الله بسبب كثرة طاعاته وكثرة اخلاصه ، وكان الرب قريبا منه برحمته وفضله واحسانه فهنالك حصلت الولاية

ثم تطور معنى الولى تبعا لما حدث فى الملة من المذاهب المختلفة وتبعا لتطور التصوف نفسه فالولى عن المتكلمين : هو من يكون آتياً بالاعتقاد الصحيح المبنى على الدليل ، ويكون آتيا بالاعمال الصالحة على وفق ما أتت به الشريعة واليه الاشارة بقوله تعالى (الذين آمنوا وكانوا يتقون) ذلك ان الايمان مبنى على جميع الاعتقاد والعمل ومقام التقوى : هو أن يتقى العبد كل مانهى الله عنه

والولى عند الصوفية كما فى الرسالة القشيرية : له معنيان

أحداهما : أن يكون فعيلا بمعنى مقبول كقتيل وجريح بمعنى مقتول ومجروح ، وهو

(١) الدكتور ابو العلا عفيفى بمجلة الثقافة عدد ١٦ سنة ١٩٣٩

(٢) ابن سينا فى الاشارات

الذى يتولى الحق سبحانه حفظه وحراسته فلا يكله الى نفسه لحظه بل يتولى رعايته على التوالى ويديم الحق سبحانه توفيقه الى الطاعات

ثانيهما : أن يكون فعيلا مبالغة من الفاعل . كالعليم والقدير . فيكون من يتولى عبادة الله وطاعته . فطاعاته تجرى على التوالى من غير ان يتخللها معصية فيكون وليا بمعنى توالى طاعات ربه . وولى بمعنى توالى فضل ربه عليه

وكلا المعنين : يجب تحقيقه حتى يكون الولى وليا فيجب أن يتحقق قيامه بحقوق الله تعالى على الاستقصاء والاستبقاء ويتحقق دوام حفظ الله تعالى أياه فى السراء والضراء

فالولاية عندهم : عبارة عن دوام الاشتغال بالله والتقرب اليه بطاعته ، واذا كان العبد بهذه الحالة فلا يخاف من شىء ولا يحزن من شىء لان مقام الولاية والمعرفة يمنعه أن يخاف أوأن يحزن

والولى عندهم : هو الواصل الى مرتبة العرفان عن الطريقة الموصلة الى تلك المرتبة فى رأيهم وهو العارف أيضا

والواصل : الى درجة العرفان تنكشف له الحجب ويشهد من الله مالا يشهده سواه وتظهر على يديه الكرامة التى هو أمر خارق للعادة (١)

وفى لطائف المنن لابن عطاء الله السكندرى : قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه من أجل مواهب الله الرضاء بمواقع القضاء ، والصبر عند نزول البلاء . والتوكل على الله تعالى عند الشدائد ، والرجوع اليه عند النوائب . فمن خرجت له هذه الاربع من خزائن الاعمال على بساط المجاهدة ومتابعة السنة والاقتداء بالأئمة فقد صحت ولايته لله ولرسوله وللمؤمنين (ومن يتولى الله ورسوله والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون) ومن خرجت له من خزائن المنن على بساط المحبة فقد تمت ولايته لله تعالى لقوله (وهو يتولى الصالحين) ففرق بين الولايتين . فعبد يتولى الله ، وعبد يتولاه الله فهنا ولايتات صغرى وكبرى .

(١) المرحوم الاستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق فى دائرة المعارف الاسلامية الترجمة العربية

فولايتك الله تعالى خرجت من المجاهدة

وولايتك الله ورسوله خرجت من متابعة الرسول ﷺ وسنته

وولايتك المؤمنين . خرجت من الاقتداء بالأئمة . فاعلم ذلك

وان شئت قلت هما ولايتان : ولاية الايمان وولاية الايقان

وان شئت قلت هما ولايتان . ولاية الصادقين وولاية الصديقين

واذ قد عرفت هذا فاعلم انهما ولايتان . ولى يفنى عن كل شيء ، فلا يشهد مع الله تعالى شيء ، وولى يبقى فى كل شيء فيشهد الله فى كل شيء

وان شئت قلت هما ولايتان . ولاية دليل وبرهان وولاية شهود وعيان

كرامات الاولياء

ان أكثر الأشعرية أجازوا للصالحين على سبيل كرامة الله لهم . اختراع الاجسام وقلب الاعيان وجميع احالة الطبايع وكل معجزة للانبياء ، وقالوا أنه لافرق بين آيات الأنبياء وكرامات الأولياء . الا بالتحدى مع دعوى النبوة . فان النبي يتحدى الناس أن يأتوا بمثل ماجاء به

ويقول أكثر الصوفية . ان ظهور الكرامات جائز بل واقع وهى أمور ناقضة للعادة غير مقترنة بدعوى النبوة ، وهى عون للولى على طاعته ومقوية ليقينه ، وحاصلة له على حسن استقامته ودالة على صدق دعواه للولاية . ان ادعاها لحاجة وشهدت له به الشريعة ويقولون ان الكرامة تغاير المعجزة فى ثلاثة وجوه

أولها : أن الانبياء متعبدون باظهار معجزاتهم للخلق والاحتجاج بها على من يدعونه الى الله تعالى فمتى كتموا ذلك فقد خالفوا الله تعالى

والأولياء متعبدون بكتمان كراماتهم عن الخلق فاذا اظهروا شيئا منها لاتخاذ الاغراض الشخصية والمنافع والجاه والشهرة . فقد خالفوا الله وعصوه

ثانيهما . ان الأنبياء يحتجون بمعجزاتهم على المشركين لأن قلوبهم قاسية

والأولياء يحتجون بالكرامات على نفوسهم حتى تطمئن وتؤمن ولا تضطرب ولا تجزع عند فوات الرزق . لان النفس امارة بالسوء مجبولة على الشك ، والنفس لا تطمئن الا برؤية العين وهذا ابراهيم عليه السلام قال : رب أرنى كيف تحى الموتى . قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي

وثالثها : أن الأنبياء كلما زيدت معجزاتهم يكون اتم لمعانيهم وفضلهم والاولياء كلما زيدت كراماتهم يكون وجلهم أكثر حذرا أن يكون ذلك من الاستدراج لهم ، وأن يكون سببا فى سقوط منزلتهم عند الله

ويتفق بعض العلماء والمتكلمون والصوفية : على أن الاولياء لهم كرامات شبه اجابة الدعاء والاخبار بمجىء زيد من سفر وعافيته من مرض ؛ فاما جنس ماهو معجزة للانبياء كاحياء الموتى وحصول انسان لامن أبوين وتسبيح الحصى فلا يكون للاولياء

اما المعتزلة وبعض الاشعرية . فينكرن وقوع كرامات للاولياء وجوازها

وقالت طائفة . بمنع جواز الخوارق للانبياء والاولياء على السواء

قال المجوزون للكرامات . ان الكرامة جائزة . اذ ليس يلزم فرض وقوعها محال ؛ اذ هى أمر يتصور فى العقل حصوله من غير أن يؤدى الى رفع أصل من الاصول . فواجب وصفه سبحانه بالقدرة على ايجاده للولى ، واذا وجب كونه مقدور الله تعالى فلا شىء يمنع جواز حصوله

وقالو . ان انخراق العادة ليس مما ينكره المتكلمون لانه جائز مع القول بالفاعل المختار ولا مما ينكره الحكماء . لانهم يقولون بان للنفوس الزكية قوى ربما تؤثر فى أكثر الاجسام التى فى عالم الكون والفساد (١)

ويروى بن عطاء الله السكندرى فى لطائف المنن عن الشيخ أبى الحسن الشاذلى فى الكرامات أنه قال . فائدة الكرامة تعريف اليقين بالله بالعلم والقدرة والصفات الازلية بجمع لايفترق ، وامر لايتعدد كانها صفة واحدة قائمة بذات الواحد يستوى فيه من تعرف

(١) الاستاذ الاكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق دائرة المعارف الاسلامية الترجمة العربية

الله اليه بنوره كمن تعرف الى الله بعقله ؛ ولاجل انها تثبت لمن أظهرت له، ربما وجدها أهل البدايات فى بداياتهم وفقدها أهل النهايات من نهاياتهم . اذ ماكان عليه أهل النهايات من الرسوخ فى اليقين والقوة والتمكين لايحتاجون معه الى تثبيت ، وهكذا كان السلف رضى الله عنهم لم يحوجهم الحق سبحانه الى وجود الكرامات الحية لما أعطاهم من المعارف الغيبية والعلوم الاشهادية . فلا يحتاج جبل الى مرساة . فالكرامة دافعة لزلزلة الشك فى المعنى ومعرفة بفضل الله فيمن أظهرت عليه وشاهدة له بالاستقامة مع الله

وقال الشيخ أبو الحسن . انما هما كرامتان كرامة الايمان بمزيد الايقان وشهود العيان ، وكرامة العمل على الاقتداء والمتابعة ومجانبة الدعاوى والمخادعة

فمن أعطيهما ثم جعل يشتاق الى غيرهما فهو عبد مفتر كذاب أو ذو خطأ فى العلم والعمل بالصواب ، كمن أكرم بشهود الملك على نعمت الرضى فجعل يشتاق الى سياسة الدواب وخلع الرضى . وكل كرامة لايصحبها الرضى عن الله ومن الله فصاحبها مستدرج مغرور وناقص ، أو هالك مثبور

الفرق بين الأولياء وغيرهم فى الكرامات (١)

أن هناك فرق بين المؤمن الكامل الذى يتوجه الى معرفة الله تعالى غارقا فى توحيده واجلاله ذاهلا عن كل شىء فى الوجود

وبين ذلك الذى تغيبه المكونات فتلتفت اليها مرآة قلبه فيعرف ما سيحدث فيها من الامور المستقبلة بمقتضى ما لجوهر نفسه من الصفاء ؛ فان النفس الصافية بمنزلة البلور التى ينتقش عليها كل ما يقابلها عند التوجه اليه

والأنبياء والأولياء . يأبون أن ينتقشوا على الواح قلوبهم شيئا من تلك الأمور الكونية وان كانت من علم الغيب ويترفعون فى أن يتوجهوا اليها أو يدنسوا نفوسهم الزكية الطاهرة بها ، لان الالتفات اليها يحط من عوالى الهمم ، وان كان أمرا كبيرا فى نفسه عند غيرهم ، ولكنه صغير بالنسبة الى درجاتهم وعلو مقاماتهم

فاجلاء الاولياء يرون من أكبر العار النظر الى الاغيار والركون الى الآثار ، وان طلب الكرامات والفرح بها دلائل سقوط الهمة وضعف المحبة والبعد عن الحضرة وعدم

(١) الشيخ يوسف الدجوى (كتاب سبيل السعادة)

خلوص العبودية والحب لا يرضى بغير محبوبه بديلا ، بل يرى كل شىء يشغله عن شهود جماله وجلاله لا يستحق النظر اليه ، فقلبه غارق فى محبة الله فى جميع أوقاته وحــركاته وسكناته وهو لا يتحرك الا لطاعته ولا يتفكر الا فى مرضاته ، لذلك فقد خرج أمثال هؤلاء من بقايا نفوسهم وحظوظها وشهواتها ، والتوجه الى معرفة الحوادث المستقبلة والشئون الغامضة من أعمال النفس ورجوع الى شهوات النفوس والاشتغال بالاكوان

قال لى حسن كل شىء تجلى ‏ ‏ بى تملى فقلت قصدى سواكا

وحد القلب حبه فالتفاتى ‏ ‏ لك شرك ولا أرى الاشراكا

فتوى شرعية فى كرامات الأولياء(١)

رقم ٤٣٦ من السجل رقم ٨

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد بخيت المطيعى مفتى الديار المصرية الاسبق رحمه الله تعالى ، والسجل المذكور طرف نجله سعادة احمد مختار بخيت بك

السؤال : — سأل حضرة عبد الجواد سيد ابراهيم المدرس بدرب الجماميز بالقاهرة حارة السادات رقم ٤ فى ٢٤/٧/١٩٤٠ م

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد بخيت المطيعى (رحمه الله تعالى)

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد . —

فقد حضر لدينا بعض المتمشيخين وجرى بيننا حديث فى موضوع ؛ هل الأولياء لهم تصريف فيما يجرى فى الكون وفى الوساطة بين الله وعباده فى قضاء حاجاتهم ؟ فأقر ذلك الأستاذ بدعوى من مقتضيات كراماتهم وخالفته فى ذلك مستدلا بأن هذا الرأى يخالف صريح القرآن ونصوص الشرع فان الله تعالى يقول (واذا سألك عبادى عنى فانى قريب) ومعنى قربه من السائل أنه لا يحتاج فى إجابة دعواه الى وساطة أحد من خلقه ، وإن ادعاء أن للأولياء تصريفا فى الكون يقتضى أنهم شركاؤه فيما يقدره فى

---

(١) مجلة عالم الروح عدد سبتمبر سنة ١٩٤٨

خلقه والله تعالى يقول : (ألا له الخلق والأمر) الى غيرذلك مما يقتضيه ظاهر النصوص الشرعية فما رأى فضيلتكم فى هذا الموضوع ؟ نرجو إيضاح هذا الموضوع الخطير مدعمين رأيكم فيه بالأدلة والبراهين لنستنير فيه بثاقب رأيكم وغزير علمكم جعلكم الله سراجا منيرا . هذا وقد زاد الأستاذ على قوله السابق أن فى القطر المصرى سبعة لهم التصريف وعد منهم السيد البدوى والفرغل وإمامنا الشافعى والسيدة نفيسة فهل لهذا أصل فى الدين ؟

الجواب : ـــ الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبى بعده

اطلعنا على هذا السؤال ونقول : إعلم أن الله قال : ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولاهم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة لاتبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم) وقال تعالى : (الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور) فأنت ترى أن الله تعالى قد بين لنا أن له أولياء وأن هؤلاء الأولياء هم الذين آمنوا وكانوا يتقون وبين حالهم فى الدنيا فقال (لا خوف عليهم ولاهم يحزنون) أى أنهم بلغ من أمرهم فى معاملاتهم وكافة شئونهم أن شيئاً مما قدر لهم لا يفوتهم ولا يحزنون على شيء قد فاتهم لأنهم يعلمون حق العلم أن كل ماقدره الله لهم وعلم أن يكون لهم لابد أن يصل إليهم فلا يفوتهم منه شيء فهم مصدقون بالقضاء والقدر: فان فاته شيء مما يطلبه لايحزن على فوته لاعتقاده أنه لم يقدر له ولو قدر له مافاته كما أن ما وصل اليه إنما وصل بقضاء الله وقدره فهو واثق بالله تمام الوثوق ولذلك وعدهم بان لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ووصفهم أيضاً بأنه يخرجهم من الظلمات الى النور بسبب ايمانهم كما يشعر بذلك تعليق الحكم باخراجهم بالايمان الذى استفيد من الموصول والصلة .

فالولى شرعاً بمقتضى هاتين الآيتين هو من يتولى الله تعالى ويتخذه مولى له فيؤمن به ويتقيه ويمتثل أوامره ويجتنب نواهيه ويتولاه الله تعالى بأن يوفقه فيخرجه من ظلمات الجهل الى نور العلم فكل مؤمن له قسط من الولاية على قدر قسطه من إشراق نور الايمان فى قلبه وتقواه أو شرح صدره للايمان والاسلام واذن فكل مؤمن ولى وانما تختلف درجات الولاية على حسب اختلاف درجات التقوى . فمن المؤمنين من يتق

الخلود فى النار بأن يكون مؤمنا عاصيا ، ومنهم من يتقى دخول النار بان يكون مؤمنا مطيعاً لله فى كل أعماله مراقباً تعالى فى سره وجهره معتقداً تمام الاعتقاد أن الله تعالى معه أينما كان وأنه لايكون فى شأن ولا يعمل من عمل إلا والله معه حين يفيض فى الشأن أو العمل راجيا ثواب الله تعالى خائفا من عقابه . وقد عرف علماء الكلام الولى بأنه هو العارف بالله تعالى وصفاته ، المواظب على الطاعات والمجتنب للمعاصى المعرض عن الانهماك فى اللذات والشهوات فهو القائم بحقوق الله وحقوق العباد حسب الامكان . ولذلك قال عبد السلام : على الجوهرة فى الولى إنه هو من تولى الله تعالى أمره فلم يكله الى نفسه ولا الى غيره لحظة أو الذى يتولى عبادة الله تعالى وطاعته فعبادته تجرى على التوالى من غير أن يتخللها عصيان وكلا المعنيين واجب تحققه حتى يكون الولى ولياً عندنا فى نفس الأمر اه وهذا الولى بالمعنى الأخص وهو المراد من قول صاحب الجوهرة

واثبتن للأوليـاء الكرامة ومن نفاها فانبذن كلامه

فهو الولى الذى تظهر على يديه الكرامة — وأما الولى بالمعنى الأعم فهو الذى يشمل كل مؤمن و يتحقق فيه المعنيان متى تحقق فيه الايمان المنجى من الخلود فى النار سواء انضم معه الايمان والتقوى المنجيان من الدخول فى النار ام لا — بخلاف الولى بالمعنى الاخص الذى تقدم . وقال علماء الكلام : يجب الاعتقاد بأن الأولياء كرامة حال حياتهم فى الدنيا وبعد موتهم يوم القيامة . والمراد أنه يجب على كل مكلف أن يعتقد الكرامة اى حقيقتها بمعنى جوازها ووقوعها لهم كما ذهب اليه جمهور أهل السنة ومعنى الكرامة أمر خارق للعادة عادة البشر غير مقرون بدعوى النبوة ولا هو مقدمة لها يظهر على يد عبد ظاهر صلاح ملتزم لمتابعة نبي كلف بشريعة مصحوب بصحيح الاعتقاد والعمل الصالح علم بها أو لم يعلم فتمتاز بعدم الاقتران المذكور عن المعجزة فلا تلتبس بها وينفى مقدمتها عن الارهاص وما يظهر على يد الأنبياء قبل النبوة كتظليل الغمام لنبينا محمد ﷺ وبظهور الصلاح عما يسمى معونة كما يظهر على يد بعض العوام المسلمين تخليصا لهم من المحن والمكاره وبالتزام متابعة نبى الخ عن الخوارق المؤكدة لكذب الكاذبين وتسمى إهانة — كبصق مسيلمة الكذاب فى بئر عذبة الماء لتزداد

حلاوة فصارت ماحا أجاجا و بالمحوية بصحيح الاعتقاد الخ عن الاستدراج كما خرج السحر من جهات عدة — والدليل على حقية الكرامة كما قال الحموى فى كتاب (نفحات القرب والاتصال) نقلا عن سعد الدين التفتازانى فى شرح العقائد النفسية ما تواتر عن كثير من الصحابة ومن بعدهم بحيث لا يمكن إنكاره خصوصا الأمر المشترك وإن التفاصيل آحادا وأيضا الكتاب ناطق بظهورها من مريم — يعنى على القول بأنها ولية لا نبية وهو الصحيح ومن صاحب سليمان صلوات الله وسلامه عليه اه وكذا قصة أهل الكهف . وفى رسالة السجاعى فى اثبات كرامة الأولياء مانصه :

دليل الوقوع ماجاء فى الكتاب العزيز من قصة مريم عليها السلام وولادتها عيسى عليه وعلى نبينا وعلى سائر الانبياء الصلاة والسلام من غير زوج مع كفالة زكريا لها عليه الصلاة والسلام ، وكان لا يدخل عليها غيره واذا خرج من عندها أغلق عليها سبعة أبواب وكان يجد عندها فاكهة الصيف فى الشتاء وفاكهة الشتاء فى الصيف اه على ان ما قصه الله تعالى علينا من قصة مريم قاطع فى ظهور الكرامة على يدها فقد قال الله تعالى فى سورة مريم إكراما لها (واذكر فى الكتاب مريم) إلى آخر مااشتملت عليه الآيات من خوارق العادات مما لا يستطيع أحد إنكاره — وهى من الأولياء على الصحيح .

وأما الدليل على جواز وقوع الكرامات للأولياء بعد مماتهم فهو مانقله الحافظ عبد العظيم المنذرى فى كتاب الترغيب والترهيب حيث قال عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : ضرب بعض الصحابة خباءه على قبر وهو لا يحسب أنه قبر فاذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها فقال النبى ﷺ هى المانعة هى المنجية من عذاب القبر رواه الترمذى — وقال حديث غريب اه من الحموى . ومثله فى مشكاة المصابيح — وقد راجعنا الترمذى فوجدنا هذا الحديث فيه فى نسخه مطبوعة طبع بولاق وقال إنه حديث حسن غريب . وقال ملا على القارى، شارح مشكاة المصابيح نقلا عن ابن ملك : فيه دليل على أن بعض الأموات يصدر عنه مايصدر عن الأحياء اه وقال الحموى عقب إيراده هذا الحديث فى كتابه المذكور آنفا : وهذا دليل على وقوع الكرامة بعد الموت

بتقريره ﷺ حيث أقر قراءة الميت سورة الملك وقال هى المانعة هى المنجية من عذاب القبر ، وتقريره ﷺ دليل شرعى كما تقرر فى محله من كتب الأصول اهـ وبناء على ماذكر قال العلامة التفتازانى كما نقله الحموى كتابه : إن مايظهر من الخوارق بعد موت الأنبياء يكون كرامة لهم لامعجزة فمن اطلق لفظ المعجزة فقد تسمح بخلاف كرامة الولى إذ لم تعتبر فى حقيقتها دعوى الولاية وقصد اظهار الكرامة بل الولى مظهر لها إذ هى كما تقدم الأمر الخارق للعادة وهو الفعل الذى لايدخل تحت كسب العبد واختياره بل هو حاصل بفعل الله والولى مظهر له ـ أى محل لظهوره ، وفى هذا الأمر لافرق بين حياة الولى وموته اهـ

ومن ذلك تعلم إن ما يظهر من التصرفات على يد الأولياء لايخالف صريح القرآن لأن هذا التصرف الذى ينسب للاولياء هو نوع من الكرامات وهو فعل الله وخلقه يظهره الله إكراما لهم وتارة بالهام وتارة بمنام وتارة بدعائهم وتارة بفعلهم واختيارهم وتارة بغير اختيار ولا قصد ولا شعور منهم بل قد يحصل من الصبى المميز وتارة بالتوسل الى الله تعالى بهم فى حياتهم وبعد مماتهم مما هو ممكن فى القدرة الالهية ولايقصد الناس بسؤالهم ذلك قبل الموت وبعده نسبتهم الى الخلق والايجاد والاستقلال بالافعال فان هذا لايقصده مسلم ولا يخطر ببال أحد من العوام فضلا عن غيرهم — فصرف الكلام اليه ومنعه من باب التلبيس فى الدين والتهويش على عوام الموحدين فلا يظن بمسلم بل ولا بعاقل توهم ذلك فضلا عن اعتقاده وكيف بالكفر أو بمخالفة القرآن على من اعتقد ثبوت التصرف لهم فى حياتهم وبعد مماتهم حيث كان مرجع ذلك كله الى قدرة الله تعالى خلقاً وايجاداً الى آخر ما أطال به الشيخ الحموى فى كتابه (نفحات القرب والاتصال) المطبوع تالياً لشفاء السقام للامام السبكى فى المطبعة الاميرية سنة ١٣١٨ هـ فما قاله ذلك الاستاذ لحضرة السائل حق — وأما مازاده أخيراً بقوله : إن فى القطر المصرى سبعة الى آخر ماقال فالتصريف الذى ينسب لهؤلاء السبعة هو عبارة إكرام الله تعالى لهم واظهار خارق العادات لمن يتوسل بواحد منهم فى أى شىء من الاشياء التى تكون كرامة للولى وليس هذا التوسل ممنوعا أصلا لما علمت مما تقدم من

ان التوسل بالولى إنما يطلب من الله اجابة طلبه إكراماً لهذا الولى لاعتقاده أن هذا الولى أقرب منه الى الله تعالى وهذا لافرق فيه بين الحى والميت لما تقدم من ان الفاعل هو الله تعالى بل إنه بعد الموت أقرب منه حال الحياة الدنيوية لأن الروح بعد الممات غير مشغولة بتدبير شئون البدن — وهذا لامانع من اعتقاده بناء على ما اشتهر عن هؤلاء السبعة من إكرام الله تعالى لهم بعد مماتهم كما يكرمهم حال حياتهم : ولكن لايجب اعتقاد أن فلانا بعينه ولى وان الله اظهر الكرامة على يده فلم يقل أحد من العلماء بوجوبه على احد بحيث يكفر جاحده بل يجوز لكل مسلم باجماع الأمة أن ينكر صدور أية كرامة كانت من أى شخص كان على التعيين ولا يكون بانكاره هذا مخالفاً لشىء من أصول الدين ولا مائلا عن سنة صحيحة ولا منحرفاً عن الصراط القويم فانه لم يجىء فى الشرع إلا أشهد ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ولم يقل أحد بانه جاء فى الشرع زيادة على ذلك وان فلانا بعينه ولى الله : لكن من ينكر أن لله أولياء معينين فهذا هو المخالف للقرآن ولاجماع أهل السنة وأما التوسط فى قضاء الحوائج فاليك ما كتبناه فى مقدمة كتاب شفاء السقام للامام السبكى وهاهو نصه ص ١٤ (وكما جاز أن يتوسط حى فى قضاء مصلحة حى أو ميت والفعل لله وحده يجوز أن يتوسط روح ميت فى قضاء مصلحة حى أو ميت والفعل لله وحده . والارواح باقية على الحياة وأفعالها فى عالم الملك إنما تظهر بواسطة البدن مادام حيا بالحياة الحيوانية فاذا مات وفقد الحياة الحيوانية بقيت نفسه وروحه على حياتها الملكوتية وتعلقت بجسمه تعلقا آخر على وجه آخر يعلمه الله تعالى كما دل عليه نعيم القبر وعذابه فاذا كان الفعل فى الواقع ونفس الأمر إنما هو للنفس والروح والجسم آلة يظهر بها الفعل والروح باقية خالدة ففعلها باق وتصرفها فى أفعالها لايتغير إلا بعدم ظهور الافعال بواسطة البدن . فلا مانع عقلا أن يكون بعض أرواح الاولياء والصالحين بعد موت الاجساد سببا بدعائها وتوجهها الى الله تعالى فى قضاء حوائج بعض الزائرين لهم المتوسلين بهم بدون أن يكون لها مدخل فى التأثير — وأى فرق بين التوسط بالاحياء فى قضاء الحوائج مع الاعتقاد لا فاعل أي لاخالق للفعل غير الله وبين توسط أرواح الاموات في اعتقاد ذلك ؟

والقول بأن ملوك الدنيا انما يحتاجون الى الوسائط لجواز الغفلة عليهم عن حوائج الناس بخلاف العليم الخبير سفسطة ظاهرة وتمويه على القول فان الملك ووسائطه واسطة فى قضاء حوائج الطالب من الله تعالى أن لافاعل سواه فلو كان اتخاذ الواسطة شركا بعد اعتقاد أن المؤثر هو الله تعالى وحده لكانت معاونة بعضنا بعضا فى قضاء المصالح شركا — وهذا باطل بالضرورة لما يترتب عليه من بطلان الشرائع وفساد نظام العالم وعدم نسبة الافعال الاختيارية الى فاعليها فتبطل الحدود والزواجر ويختل النظام فعليك بالانصاف قال المناوى فى شرح عينية ابن سينا فى النفس : قال الناظم فى كتاب زيارة القبور : تعلق النفس بالبدن عظيم جدا حتى أنها بعد المفارقة تشتاق وتلتفت الى الاجزاء البدنية المدفونة فاذا زار انسان قبر آخر وتغاضى عن العلائق الجسمانية والعلائق الطبيعية توجهت نفسه الى العالم العقلى فتواجه نفسه نفس الميت وتحصل منهما المقابلة كما فى المرآتين فيرتسم فيها صورة عقلية بطريق الانعكاس ويحصل لها بذلك كمال اه) وبعد أن نقلنا عن الغزالى وابن حجر مايتعلق بذلك قلنا فانظر الى ما نقلنا من كلام حجة الاسلام الغزالى وكلام ابن حجر لتعلم أن ما كتبوه ونشروه فى بعض الجرائد منسوبا الى هذين الامامين قد حرفه عن مواضعه الذين كتبوه (فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون) . ألم يعلموا أن زيارة القبور تارة يقصد بها الموعظة بالأموات وهذه تعم جميع القبور والاموات وتارة يقصد بها الاستمداد والتبرك بالمزور — وهذا يختص بالانبياء والاولياء والصالحين ؟ ألم يعلموا أن الانسان يتأثر بتصوراته وأن نفسه تحت قهر سلطان الوهم ؟ فكم من إنسان تحقق أن سيقتل لامحالة فتصور الموت واقعا به فمات بسبب ذلك قبل أن يقتل — كذلك اذا زار الانسان مشهد الحسين رضى الله تعالى عنه واعتقد أنه بمكان طاهر بين يدى ابن بنت رسول الله ﷺ استولى عليه الخشوع والخضوع وامتلأ قلبه اخلاصا فيدعو الله مخلصا موقنا بالاجابة خصوصا اذا اعتقد ان روح الحسين رضى الله عنه تسأل الله تعالى اجابة دعاء زائره أليس ذلك سببا فى اجابة الدعاء وقضاء حوائج الزائرين المخلصين والله هو المؤثر ؟ ولا نرى مسلما ولو عاميا يتوهم فضلا عن ان يعتقد ان لله شريكا فى خلقه فهما اعتقد الزائر ان المزور

أطهر منه روحا واصفى نفسا بما أعطاه الله تعالى من الكمال الانسانى وان كان العوام لايستطيعون التعبير عما تكنه صدورهم من حسن العقيدة وكمال الايمان — (اللهم إيمانا كايمان العجائز) فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا ؟

صورة طبق الأصل من السجل رقم ٨ الموجود طرف سعادة احمد مختار بخيت نجل فضيلة الاستاذ الأكبر الشيخ محمد بخيت المطيعى رحمه الله تعالى

٢٨/٤/١٩٤٨ كتبها : عبد الحميد سعد جليله

من موظفى ادارة المحاكم الشرعية بوزارة العدل

﴿ الدكتور زكى مبارك يهاجم التصوف ثم يعدل عنه ﴾

قدم الدكتور زكى مبارك رسالته (الاخلاق عند الغزالى) سنة ١٩٢٤ فهاجم فيها الصوفية وبخاصة حجة الاسلام الغزالى ، وماجاءت سنة ١٩٣١ حتى كان قدفهم من التصوف مالم يكن قد فهمه من قبل فاعلن عدوله عن رأيه الأول بمجلة المعرفة فى عدد أغسطس سنة ١٩٣١ والرجوع الى الحق فضيلة فكتب فى ذلك مقال قال فيه

أكتب اليوم هذه الكلمة وأنا متردد حيران لأنى مشفق على الاسلام من الافراط فى المقترحات يضاف الى ذلك ان هـــذه الكلمة تخالف بعض الشىء ماجاء فى كتابى (الأخلاق عند الغزالى) فى مهاجمة غلاة الصوفية لاسيا وقد قررت هناك ان التصوف ليس مما تدعو اليه الشريعة الاسلامية وانما هو مزيج بين عدة مذاهب هندية وفارسية ويونانية نقلت الى المسلمين وصادفت هوى فى نفوسهم ؛ ويمكن الحكم بان مافى الدعوة الى طهارة القلوب والباطن وحب الخير وبغض الشر وما الى ذلك مما يتعلق بخلوص النفس البشرية من خبيث الصفات يرجع فى جوهره الى روح الاسلام ، أما مايختص بقطع العلائق مع الناس والزهد فى الحياة فهو بعيد عن روح الدين ،لأن الاسلام دين فتح وسيطرة ويعد مقنقبه لان يكونوا اسادة بخلاف التصوف فانه يلبس أصحابه روح العبيد

وأنا اليوم اعتقد أن التصوف ضرورى للاسلام وقد صارحت بذلك محرر مجلة المعرفة الأستاذ عبد العزيز الاسلامبولى فصاح قائلا (اذن زكى مبارك يرد على زكى مبارك) ويظهر أنه لم يكن يسرنى أن أنقض ماقررته بالأمس لهذا عدت الى كتاب الاخلاق

عندالغزالى . فرأيت انى لم أسىء الى التصوف وانما هاجمت الشعوذة التى يحيا بها المخبولون على حساب الدين ، وقال فلو تقدم اثنان من الدعاة فى أمة وثنية وكان أحدهما يبشر بالاسلام الخالص وكان الثانى يبشر بالاسلام ممزوجا بالتصوف لكان الفوز للثانى بلا جدال . ذلك لان المبشر بالاسلام مع التصوف يضيف الى العقيدة ألوانا كثيرة من التعاليم والعبادات التى تنتهى بجذب المهتدى الى الدين الجديد لان التصوف مجموعة من الانظمة الروحية التى تصل الرجل بربه وتبعث فيه حياة الوجدان وهذا الذى أقوله لم أصل اليه الا بعد تجارب

فالمؤمنون الحقيقيون عندنا فى الغالب من معتنق المبادىء الصوفية والخلاصة أن التصوف الصحيح يقدم الى المسلمين ماتحتاج اليه ارواحهم من الانظمة الجذابة التى تصل أفئدتهم وصلا أبديا بالدين الحنيف

وبعد ذلك الف رسالته التصوف الاسلامى وصلته بالادب والاخلاق سنة ١٩٣٧ على ضوء أفكاره الجديدة فى التصوف ، ومما قال فيها معتذرا عن أقواله السابقة (بالاخلاق عند الغزالى)

انى تحاملت على الغزالى وتعجلت على أرائه فى سياسة النفس فقد كان الغزالى يدعو الى العزلة عن الناس وكنت أرى ذلك من الجبن فى الحياة الاجتماعية . ثم تكشفت الحقائق فرأيت أن المروءة تقضى فى أحيان كثيرة بالهرب من الناس ومن ذا الذى سلم أديمه من عدوان الخلق فلم يتمن الاعتصام من شرهم بالعزلة فى شواهق الجبال وكذلك عدت استروح بذكرى التصوف واضمر له الشوق والحنين . ثم قال أن الرجل الصوفى حين يؤلف فى أدب النفس يجمع بين الصورة القولية والصورة العملية فهو شعلة من اليقظة الروحية فيما يقول وفيما يعمل . أما مكان الصوفية بين أرباب الاخلاق فهو الصدر وهم اساتذة الناس فى هذا الباب . ثم قال والخلاصة ليس التصوف وقفا على أولئك الدراويش الذين يعيشون عيشة التسول ويتخذون شمائل الزهاد صادقين أوكاذبين

وقد كتب الاستاذ المرحوم جاد المولى بك فى كتابه الخلق الكامل عن الصوفية مانصه : قدر الصوفية المعارف النفسية حق قدرها وان كانوا حملوها من المعانى فوق

طاقتها فللفضائل حدود خاصة قد تخالف فى حدودها علم الاخلاق البحت

ولكن الفضائل الاسلامية تحمد لطائفة الصوفية عنايتها بتطهير النفوس وتهذيب الاخلاق والوجدان واحياء القلوب وكبح المطامع وكسر حـــدة الشهوات التى فى محاربتها رواج للخير

وجوه نقد التصوف والرد عليها

يقول بعض خصوم التصوف : أن التصوف ليس مما تدعو اليه الشريعة الاسلامية وانه دخيل على الاسلام . لان الاسلام دين عمل وكدح وجهاد ، يأمر بالتمتع فى هذه الحياة الدنيا دون أسراف ولاعدوان ، ويعد المحسنين السلطان والتمكن على هذه الارض وينهى عن الرهبانية ويحذر من الغلو فى الدين والمبالغة فى العبادة ، وقد نهى رسول الله ﷺ عن مواصلة الصوم والتهجد طول الليل ، فنهى ابن عمر عن مواصلة الصيام والقيام فقال له : قم ونم ، وصم وأفطر ، ان لبدنك عليك حقا ، وان لأهلك عليك حقا

ويرد على هذا أنصار الصوفية بقولهم : ولكن الاسلام مع هذا ينهى الناس عن السكون الى هذه الحياة الدنيا وزخرفتها ، وينبىء عن حقارتها وقلتها بالنسبة الى الحياة الآخرة . فكان الرسول ﷺ مع سمو نفسه وعظمة روحه يتقلل من متاع الدنيا ويحقر زينتهـــا . وكان فى خاصة نفسه يكثر الصوم والتهجد ، ويعتكف فى المسجد خصوصا فى شهر رمضان ، ويلزم نفسه عبادات لايلزم أصحابه بهـا بل ينهاهم عنها ، ألا أن المسلمون اتخذوه القدوة والمثل الاعلا فى كل مافعل ، وفى كل مامثله لامته ، وماخص به نفسه من طريق الرغبة والحرص على التمثل به ، ولم لايكون ذلك وقد جاء القرآن الكريم وجاء الحديث الشريف يحثان على الذكر والفكر ومراقبة النفس والتحذير من الهوى والغفلة ، ولهذا دعى ذلك المسلمين للنزوع الى الزهـــد والى التقشف والى الاعراض عن الدنيا والى الاكثار من نوافل الصوم والصلاة والعبادات . خصوصا والاسلام يقدر قيمة التقوى ويأمر بها ويجعل القيم الدينية فى مقدار هذه التقوى

ويقول خصوم التصوف : وان الاسلام كذلك لم يأمر بالعزلة وعدم مشاركة

الناس فى سياستهم الدنيوية والاجتماعية فان التقوى التى هدى اليها الاسلام هى تقوى العاملين لمعايشهم المجاهدين فى هذه الدنيا ، لاتقوى المترهبين العاكفين على العبادة والخانعين لغير الزمان وتقلب الحدثان . كما أرشد الاسلام للتقوى التى تحلى بها المسلمون الاولون ، تقوى عمر ، وتقوى على وأمثالهما ممن كانوا يصرفون أمور الرعية ويدبرون الحرب والسلم فى المساجد ، ولا يفرقون بين العبادة والعمل لخير الأمة وحمايتها والدفع عنها

ويرد على هذا أنصار التصوف بقولهم : نعم وقد كان الى جانب هؤلاء جماعة لم تشغلهم أمور الناس ، فبالغوا فى العبادة وركنوا الى الزهد ، كعبدالله بن عمر وعبد الله بن عمرو ، وأبو ذر الغفارى وحذيفة بن اليمان وغيرهم كاهل الصفة . على أن الفتن التى ثارت بين المسلمين فأسالت بينهم الدماء . أفزعت كثيرا من الاتقياء ، وحببت اليهم الابتعاد عن مدارجها جهد الطاقة ، وأوحت اليهم الاشفاق مما يعرض الدين للمآثم والشبهات فبالغوا فى الانقباض عن الناس وبالغوا فى العزلة والتورع . فالثورة التى قامت على عثمان ، والحرب التى قامت بين على ومعاوية ، وقتل الحسين السبط بكربلاء . وصلب زيد بن على وابنه يحيى بالكوفة ، وحصار ابن الزبير وقتله على أبواب المسجد الحرام ، كل ذلك وأمثاله من الحوادث أوحت الى المسلم التقى أن يفر بدينه وأن يعتقد أن مشاركة الناس فى أمور الدنيا على هذه الحالة مشاركة لهم فى هذه الفتنة التى أمر رسول الله ﷺ أن يفر المرء منها وان يلزم عقر داره ، لان ذلك ارتكاس الى الجاهلية الاولى التى نجا الله الاسلام منها . ولذلك اجتهد بعض المسلمين ان يعتصموا بالزهد وأن يعتزلوا الناس بعد مضى الخلافة الرشيدة ومجىء الملك بمظالمه وفتنه وغروره وكان أول حادث من هذا النوع حادث سعد بن أبى وقاص أحد أهل الشورى الستة وقائد المسلمين فى فتح فارس . فلقد فر سعد بدينه بعيدا عن الفتنة ولزم جماعة من أهل بدر بيوتهم بعد مقتل عثمان فلم يخرجوا الا الى قبورهم

فاذا أضفنا هذه الحالات الى ما كان فى سيرة النبى صلى الله عليه وسلم فى خاصة نفسه وما كان من سيرة أصحابه . ثم الى ماحث عليه القرآن الكريم والى ماجاء به الحديث الشريف وجدنا أنها تدل دلالة واضحة بان التصوف نشأ فى قلب الجماعة الاسلامية

الأولى وأن منابع التصوف ونشأته ومصادره كانت أصيلة فى الاسلام . حتى لقد قيل أن التصوف كان من طبع العرب قبل الاسلام وكان من طبع النبى صلى الله عليه وسلم قبل نزول الوحى . فقد كان يعتكف فى غار حراء قبل بعثته وكان يتحنث بعيدا عن الناس وحيدا ويتعبد على دين ابراهيم الخليل عليه السلام ويتفكر ويتأمل ويحاول بما فى جوهر نفسه الصافى وبما فى قلبه الطاهر أن يتصل بقدس ربه بمعرفة الحق الى أن نزل عليه الوحى وجاءه اليقين وكانت العرب اذ ذاك تقول فيه قبل البعثة (أن محمداً عشق ربه)

هذا التفنيد تناوله مؤرخوا التصوف الاسلامى فى جملته وأما فى تفصيله :

فالفلاسفة وأصحاب المذاهب العقلية : عابوا طريقة الصوفية فى المعرفة وأنكروا أن يكون التفرغ والتجرد من متع الدنيا والزهد من شهواتها ونعيمها سبيلا الى المعرفة بل سبيل المعرفة عندهم هو تغليب أرقى اجزاء النفس على الحواس وهو أرفع مراتب السعادة كما يقول ابن رشد . ولكنهم بهذا يؤيدون الصوفية أكثر مما ينقدونها أو ينتقضونها ، لأنهم فى قولهم بتغليب العقل ينزعون الى التصوف وأن اختلف الوضع فهم ينادون بالعقل ، والصوفية ينادون بالروح

واذا كانت التربية الحديثة تدعو الى تهذيب الاذواق بفنون الجمال الحسى فان التربية الصوفية تدعو الى تلطيف السر بانواع الرياضة (١)

وأن مما يعين على تحقيق الغرض من هذه الرياضة عدة أشياء ، العبادة المشفوعة بالفكرة ، ثم الالحان المستخدمة لقوى النفس الموقعة لما لحن فيها من الكلام موقع القبول من الاوهام ، ثم نفس الكلام الواعظ من عقل زكى بعبارة بليغة ونغمة رخيمة وسمت رشيد . ويعين على تلطيف السر الفكر اللطيف والعشق العفيف الذى تحكم فيه شمائل المعشوق لاسلطان الشهوة (٢)

أما تنظيم أوقات العبادة مع الزهد والتقشف والتقليل من متع الحياة الدنيا فما هى الا

(١) الاستاذ الاكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق فى سلسلة محاضراته بالجامعة المصرية القديمة عن الامام الشيخ محمد عبده عند عرضه لقصته مع الشيخ درويش الصوفى

(٢) ابن سينا فى الاشارات

وسائل لتصفية الفكر واعداده لفهم الحياة على حقيقتها الفطرية (١) والصوفية عنوا بمعرفة النفس من الجهة الفكرية ليعرفوا صلتها بخالقها ومن الجهة العملية ليروضوا أنفسهم على الخير ويهذبوها ويضعوا للسالكين المقامات والاحوال التى يحدون بها سلوكهم ويجنبوها خداع النفس وأوهامها ومن عرف نفسه فقد عرف ربه (٢).

وقال الغزالى فى توضيح السعادة : — سعادة كل شىء لذته وراحته ، ولذة كل شىء تكون بمقتضى طبعه ، وطبع كل شىء ماخلق له . فلذة العين الصور الحسنة ، ولذة الأذن الأصوات الطيبة ، وكذلك سائر الجوارح بهذه الصفة ، ولذة القلب الخاصة بمعرفة الله سبحانه ، لانه مخلوق لها ، وكل مالا يعرفه ابن آدم اذا عرفه فرح به مثل الشطرنج اذا عرفه فرح به ، ولو ينهى عنها لم يتركها ولم يطق عنها صبرا وكذلك اذا وقع فى قلبه معرفة الله فرح بها ولم يصبر عن المشاهدة . لان لذة القلب المعرفة وكلما كانت المعرفة أكبر كان (الله اكبر) وكذلك اذا عرف الوزير فرح فاذا عرف الملك كان أعظم فرحا ، وليس موجودا أشرف من الله سبحانه وتعالى لان شرف كل موجود منه ، وكل عجائب العالم أثر من أثار صنعته . فلا معرفة أعز من معرفته ، ولا لذة أعظم من لذة معرفته ، وليس منظر أحسن من منظر حضرته ، وكل لذات وشهوات الدنيا متعلقة بالنفس وهى تبطل بالموت ولذة معرفة الله متعلقة بالقلب فلا تبطل بالموت لان القلب لايهلك بالموت بل تكون لذته وضوءه أكبر لانه خرج من الظلمة الى النور

وقال رحمه الله : — لولا صدق الرؤى عند الانسان واستعداده للتنبؤ لما كان يصدق بنبوءه الانبياء وذوى الوحى ، وأنت تعجب العجب كله . اذ ترى فى صدق الرؤى وتسمع أو توفق الى انسان لايحلم حلما الا وقع كما رآه النائم فى نومه ، ونحاول مع هذا أن نتغلغل فى كل شىء وأن نتعرف كل مجهول الا انه لاحياة الآخرة ، ولا سعادة الا مع الفضائل وكمالات النفس

الفرق بين العلم والفلسفة والتصوف

فالعلم : — يؤسس القوانين المستندة الى المشاهدة الخارجية والتجربة الحسية والتى

(١) الاستاذ عبدالله حسين فى التصوف والمتصوفة

(٢) الدكتور عبد الوهاب عزام بك فى تقديمه لمجلة علم النفس العدد الأول

نشعر بها احداث الكون وظواهره دون ان تتجاوز هذه الاحداث والظواهر ماوراءها

والفلسفة : — تحاول أن تتعرف حقائق الوجود وحقيقة مبدعه ومفيضه عن طريق النظر العقلى

والعلم والفلسفة : — يحومان حول حقيقة الحقائق من بعيد

أما التصوف : — فان لهغاية أسمى من غاية العلم والفلسفة فهو يرى الاتصال المباشر بحقيقة الحقائق ويرمى الى شيء آخر أبعد من هذا الاتصال وهو الشعور بالاتحاد مع الحقيقة العليا والانس بها ، ووكل شيء اليها ، واعتبارها منبعا فياضا لكل مافى الكون من آيات الحق والخير والجمال

ويمكن القول اجمالا بان العلم نظريات والفلسفة انظار والتصوف أذواق (١)

أما علماء الاجتماع : فقد تهكموا على الصوفية وأساليبها وأسرفوا من التهكم والتجريح لانها فى نظرهم لاتصلح للحياة العملية ، ولا يقوم عليها نظام المجتمع ، ولا يمكن أن تؤسس على نظمها الزاهدة الأمم ، وهنا يقول قائل أنه مادامت آخرة الانسان روحية فالدنيا تعتبر عدما أو كالعدم . والامة الزاهدة هى الرابحة السعيدة (٢) وصاحب هذا الدفاع يتمنى لو وجدت أمة تجتمع على التزام حدود الله وتذهب فى سبيل الكمال الى حد أيثار العدالة على القوة والاحسان على العدالة أيضا وبهذا يكون أبناؤنا ملائكة يمشون على الارض ويصلحون الارض ومن عليها (٣)

على أن الصوفية لاتحرم الاخذ من الدنيا بنصيب ولكن اذا ماتجرد أحد من هذا النصيب راضيا مختارا وأقبل بكلية نفسه على الآخرة فذلك السمو الروحى الذى لا يبلغه الا الاصفياء الذين زكت نفوسهم من الجوهر الخالى الزمن وتطهرت أرواحهم من كافة شوائب الارض وعالم المادة والعيبة فيهم منطق لايستقيم وحجة لاجى. اليها المايون ليستوى عندهم الناس من أقذار الحياة وشوائبها ومعينها الملوث البعيد عن الطهر والصفاء (٤)

---

(١) الدكتور محمد مصطفى حلمى (ابن الفارض والحب الآلهى)

(٢) الدكتور يوسف كرم فى الكلام عن الغاية القصوى للغزالى

(٣) الدكتور محمد يوسف موسى

(٤) الدكتور احمد فريد رفاعى فى كتابه الغزالى

وكل هذه شهادة للتصوف لا عليه . فهى تدل أنهم لاينشدون مظهرا فى الحياة ولا غلبة فى مضمارها ولا يبغون مأرباولا يلتمسون مغنما وانما ينشدون قربامن اللهورضوانه وعبادة العبادة . بل أن التصوف جعل العبادة أصلا والمعرفة فرعا ، والصوفية لا يقولون أن طريقتهم للناس جميعا لأن الثانية لم تكن شرعا مباحة لكل من يخطو بقدمين على الكوكب الارضى وليس فى استطاعة الناس أن يكونوا جميعا ملوكا او أن يكونوا فلاسفة ولا أن يكونوا أطباء أو غيرهم من الطوائف ذوى المذاهب العقلية أو العملية

والغزالى نفسه يقول ، ولا يقعدنكم ماحكيناه عن علوم الصوفية أن تطلب العلوم الدنيوية فهى لاتنبىء عن حقارتها ، وانما هذه طريقة لو أتبعها الناس جميعا لخرب العالم وبطلت الحكمة منه

أما الفقهاء والمتكلمون : فقد هاجموا التصوف بل غالوا فى هجومهم حتى رموهم بالمروق والكفر ومفارقة الشريعة وظاهر السنة

فكان زعيم حركات مناهضة الصوفية ومعارضتهم والهجوم عليهم الشيخ احمد تق الدين بن تيمية الذى سارت المعارضة من بعده على غرار أقواله وهجومه

فقد كان ابن تيمية يحرص كل الحرص على الآراء السلفية ، ويحرص فى كتاباته على أن تكون آراؤه مستمدة من السنة المطهرة وأن تكون أعمال المسلمين وأفعالهم مقيسة بقياس الشرع لذلك لم يكن ليستسيغ الآراء الصوفية التى ظهرت فى العصور المتأخرة والتى كانت رغم صبغها بصبغة دينية ممزوجة باراء الفلاسفة أو الصابئة أو زهادالهنود وما الى ذلك من أشياء ليس لها مسوغ شرعى فى كتاب أو سنة

وابن تيمية يكره الفلسفة وعقيدة الفلاسفة ويعتقد أن هذه الألوان من التصوف التى ظهرت أخيرا كانت أثر من آثار تعاليم الشيعة والملاحدة حتى أن المصطلحات التى استعملها الصوفية تكاد تكون صورة واحدة لمصطلحات هؤلاء الملاحدة

وكان ابن تيمية لا يركن الى ما اصطلح عليه الناس من حكمة أو سياسة أو مراعاة للظروف ، وكل ما من شأنه أن يثبط العزائم عن الجهاد وكثيرا ما كان يتغنى بالبيتين المأثورين عن عمر بن الخطاب :

لم يبق فى شرف العلا الا التعرض للحتوف
فلأ رمين بمهجتى بين الاسنة والسيوف

قيل أنه كان بدمشق أيام حرب التتار وشاهد بعض الصوفية يلجئون الى قبور مشايخهم وانه سمع شاعر يقول

ياخائفين من التتر لوذوا بقبر أبى عمر
عوذوا بقبر أبى عمر ينجيكمو شر التتر

فقال لهم هؤلاء الذين تستغيثون بهم لو كانوا معكم فى حرب التتار لانهزموا كما انهزم المسلمون فى غزوة أحد لما أراد الله ثم أفتى بهدم القبور ومقابر الاولياء

ومع عداوة ابن تيمية للصوفية كان هو كذلك زاهدا ورعا مداوما على تلاوة القرآن ولم يتزوج . ومن غريب ما اتفق أن جميع البدع التى كان يحاربها وينهى عنها مثل تلاوة القرآن على الموتى والتبرك بالصالحين وآثارهم حصلت فيه عند وفاته . فقد جاء جماعة من انصاره من رجال ونساء وقرأوا عليه القرآن وتبركوا برؤيته وتقبيله وشرب جماعة منهم ماء غسله وتهافتوا على الاحتفاظ ببعضه وتردد الناس الى زيارة قبره والتبرك به وقيل أنه قد دفع من طاقيته التى كان يلبسها خمسماية درهم

ان المذاهب القت بيننا فتنا وأورثتنا افانين العداوات

والأمة الاسلامية مبتلاه بالجدل العقيم منذ أجيال . تجادل فى أصول العقائد وتجادل فى الفروع وتجادل فيما هو أقل فى الاصول والفروع راضية بهذا الجدل . لاهية عن سر الاسلام وعظمته ، وعن سر دعوة الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم ، ولم تكتف بهذا بل انقسم أبناؤها وأقاموا الحروب على بعض ، كل له مذهب ينصره ورأى يدافع عنه ، وكل ينظر الى مصلحة فردية أو قومية أو جنسية أو مذهبية . فصارت هذه القوى من عوامل فناء الامة لا من عوامل بنائها ، ومن أسباب شقائها لا من أسباب سعادتها والقرآن الكريم يدعو الى الوحدة ويدعو الى رد ما اختلف فيه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولقد وصف القرآن المسلمين بالاخوة فقال انما المؤمنون أخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله (١)

(١) الأستاذ الاكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى فى الاحتفال بذكرى المولد النبوى سنة ١٩٣٧

خالف ابن تيمية ومدرسته الغزالى ومدرسته فبينما كان الغزالى يقرر أنه درس جميع المذاهب الفلسفيه ودرس المنطق ودرس الديانات دراسة عميقة فلم يهتد الى غايته حتى أدلى دلوه فى التصوف فعب منه وأرتوى ووجد فيه راحته وطمأنينة نفسه وناصر الصوفية لدرجة أنه كان زعيما وكان محاميا لهم يقرر نظرياتهم فى الورع والزهد ويحدد المقامات والاحوال وغيرذلك مما أرتاده فى سلوكهم وطرائقهم ثم يعلن أن فى التصوف السعادة كل السعادة ومعرفة الله الحقة التى لاسبيل الى بلوغها بدونه . كان ابن تيمية يدحض هذه الاقوال ويعدها من وهم الخيال ومن خبال العقل وذهوله وأن فى طريق الصوفية مخالف للشريعة الاسلامية وبعيد عن مرامى الدين وأنه دخيل على الاسلام زوج بديانات أجنبية ومجارى للفلاسفة الذين هم فى نظره ملاحدة وكفرة وأن زهادة : صوف و نظرياته تسربت الى الاسلام لضعفه وأن هؤلاء الزهاد من الصوفية لا يقصدون ا لا أضعاف الأمة الاسلامية وقتل روح الفتوة والجهاد فيها فهم (كالطابور الخامس) فى الأمة ، ولا يزال أنصار المدرستين الى الآن فى جدال عنيف ومناقشات حادة وكل ريق مصر على مبدئه يجاهد لنصرته وتأييده

أما حملة ابن تيمية على البدع وعلى الشعوذة وعلى أولئك المضللين الدخلاء على الصوفية فمقبولة وهى لاتخرج عن أنها حملة ضد مفهوم التصوف الشعبى الذى تكلمنا عنه فى موضعه من قبل فى هذا الكتاب . وكذلك حملته على كل ما من شأنه أن يثبط العزائم عن الجهاد فى سبيل الله والدفاع عن البلاد والعباد . وأننا لنشاركه فى حملته هذه ويشاركه كذلك كل متصوف صادق . لان اللوم فى الحقيقة لا ينصب على التصوف من حيث معانيه الحقيقية وانما يكون واقعا على الجهل والتضليل والتدهور الاخلاقى وضعف العزيمة ، وقد يكون واقعا على العلماء وعدم قيامهم بواجبهم وعلى سوء الادارة الحكومية أيضا لأن الحكام والعلماء أهملوا أمر الدعوة الى الجهاد أو قصروا فى تقديم العتاد الحربى ومهمات الدفاع فاضعفوا بذلك الروح المعنوية للشعب جميعه . فلم يبق هذا التقصير والاهمال بسبب الصوفية

فاذا دعى الصوفية العزل من الناس والعجائز والأطفال الى الفرار من التهلكة

والتحصن بمقابر الأولياء المقام على غالبيتها المساجد واذا دلوهم الى المقابر عامة فانما دلوا الناس الى أمكنه لها حرمتها وقداستها : ولا تزال محل احترام الجميع على اختلاف مناصبهم واتجاهاتهم الدينية ، وليس لان سكان القبور من الأولياء الموتى لهم سلطان بالفعل أو قدرة على حماية الناس من المكروه

(ليس على الضعفاء . ولا على المرضى ، ولا على الذين لايجدون ماينفقون حرج اذا نصحوا لله ورسوله . ماعلى المحسنين من سبيل ، والله غفور رحيم ، ولا على الذين اذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه . تولوا واعينهم تفيض من الدمع حزنا الا يجدوا ما ينفقون . انما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء . رضوا بان يكونوا مع الخوالف وطبع الله على قلوبهم فهم لايفقهون)

كتب الأستاذ احمد صبرى شويمان زعيم الانصار وجماعته فى التصوف بلون فى الكتابة أشد وأقسى مما كتب ابن تيمية فاتهم (التصوف) بالوثنية ولم يفرق بين التصوف الصادق وبين الشعوذة والدجل ولا بين تصوف الزهاده وبين التصوف الفلسفى حتى أن الصوفية عندهم على اختلاف مشاربهم ودرجاتهم هم الطابور الخامس الذين أوقعوا البلاد الاسلامية فى مخالب الاستعمار الأجنبى . أمثال معروف الكرخى وشقيق البلخى حتى والغزالى والشاذلى ، والفضيل بن عياض وابراهيم أدهم وغيرهم ؛ واتهم الجميع بالجبن والخور والنفاق وضعف العزيمة والحرص على المال والخوف من الموت وبالجملة فانهم يحرصون على الحياة الذميمة وان ما تكلموا فيه من علوم ماهى الا اتجاهات صدرت منهم عن سوء قصد من رجعة العقائد الوثنية والبوذية والمجوسية وما الى ذلك وأرادوا بها أفناء الاسلام والمسلمين بتحريض خصوم الاسلام من أهل الديانات المختلفة ، وهذه الدعاوى كلها جريئة ومغالى فيها ولم يقل أحد من خصوم التصوف والصوفية بها وأن زعموا تسرب آراء وأفكار أجنبية عن الاسلام من ديانات وفلسفات اليه يرد عليها أنصار التصوف ومؤرخوه المعتدلون

أما الحرص على المال : فمن أين أتى لهم وهم ملومون على التفريط فيه لانه عصب الحياة وقوام الدولة وزهدهم فيه مخالف للاجتماع ، ومن أروع ماروى عن أحد الصوفية أنه

سئل . كم تجب الزكاة فى مائتى درهم فقال : أما عند العوام بحكم الشرع فخمسة دراهم أما نحن فعندنا فبذل المال جميعه فى وجوه الخير بل ومن أين يأتى لهم الحرص وقد قيل أن أباحازم الاعرج دخل على بعض ملوك بنى مروان وكان من حوارها ان سأل الملك أبا حازم ما مالك ؟ قال مالى مالان . قال ماهما ؟ قال الثقة بما عندالله واليأس مما فى أيدى الناس . قال أرفع حوائجك الينا قال هيهات ؟ رفعتهـا الى من لاتختذل الحوائج دونه . فان أعطانى منها شيئا قبلته وان زوى عنى شيئاً رضيت . فان صح الحرص فهو لدى الكـذابين والدجالين فلا يصح أن يتهم به أهل الايثار والفتوة الصادقين فى التصوف الذين لهم قدم ثابت فى الزهد وحب الخير للناس

أما الجبن والضعف والخور والنفاق : فان الصوفية الـكبار ضربوا الأمثلة العديدة على الجرأة فى الحق وعدم الخوف من الخلق ، ومن أبلغ الأدلة مايروى عن أبى الحسن النورى والمعتضد الخليفة العباسى وهذه واحدة فى الحوادث الـكثيرة التى تشهد لهم بالبطولة

كان عصر المعتضد عصرا عبد الناس فيه الهوى وبرزت فيه السيئات وانحرف الخلفاء عن آداب الاسلام ومالوا الى الشهوات وتابعهم الناس ، وعمد رجال الفقه والعلوم الـكسبية الى المصانعة والتقية فلانوا مع أهواء الخلفاء وسايروا الجماهير ، ولـكن النورى لم يسر فى هذا الطريق ولم ترهبه سطوة الخلفاء وصغر ذلك كله فى عينيه وتضاءلت عنده الرهبة . فأى شىء يخيفه ؟ لاشىء الا الحق

نزل النورى يوما الى دجلة ليتهيأ للصلاة أى ليتوضأ فرأى زورقاً تلمع فيه حراب الجند وترتفع منه أغانيهم ورأى دنان الخمر تملأ رحاب الزورق . وكأن المنكر يسبح فى حماية الماء وهيبة الخليفة ، والنورى لايقبل مثل هذا العمل . ودفع الظلم فريضة وحياة فوثب فى غضبة المؤمن وثبة أوصلته الى الزورق فاضطرب الجند وتصايحوا أنهـا للخليفة . فازداد النورى غضبا ، وتناول عمودا من الحديد وانهال على الدنان تكسيراً وتحطيما ، وهو يردد قول الله تعالى (قل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا) فاتى عليها كلهـا الا واحدة ، والقى الجند القبض عليه وسيق الى الخليفة المعتضد وكان قاسيا جبارا ، ولما دخل عليه النورى ارتعد الخليفة فهو يعلم من هو النورى ولـكنه ملك

نفسه وصاح بالنورى مستهزئا . ما حملك على هذا الذنب الكبير فاجاب النورى الذنب الكبير والعذاب الأليم لك ولمن اتبعك من الغاوين ، حملتنى الشفقة الكبيرة عليك من النار الموقدة التى أعدت للعصاة أمثالك ، فبهت الخليفة وانتقل الى نطاق جديد فى القول وقال تركت واحده، فقال النورى اعجبتنى نفسى حينما وصلت اليه فتركته خيفة أن أحطمه اعجاباو غرورا لا طاعة واحتسابا قال الخليفة : الا تخشىء غضبى . فاجابه النورى وأنت ألا تخشى غضب الجبار . لتعلم أن لله عبادا يقومون بالله ويروحون بالله ويرجعون فى كل أمورهم اليه . قال الخليفة سأخلى سبيلك على ألا تعود لمثلها . قال النورى لئن عدت لعدنا فوالله لن تكون على باطلك أقوى منا وأجرأ على حقنا وخرج النورى وهو يردد قول الله . والذين اذا أصابهم البغى هم ينتصرون . وفرحت بغداد بانتصار امامها وحجتها ، وروى السبكى فى طبقاته ، ان العز بن عبد السلام وكان ممن يعتنقون المبادىء الصوفية على الطريقة الشاذلية وقف فى وجه القائم بأمر مصر وقتئذ لما أراد أن يفرض ضريبة على التجار لسد النقص من بيت المال وخاطبه قائلا : اذا أحضرت ماعندك وعند حريمك من الحلى وأحضر الأمراء كذلك ماعندهم وعند حريمهم . وضربت سكة ونقداً ولم تقم بالكفاية فلك أن تطلب منى هذا الفرض وأما قبل ذلك فلا

وأما كراهية الموت فيرد ابن عطاء الله السكندرى فى لطائف المنن اذ يروى عن أبى الحسن الشاذلى أنه كان يقول : من أحب الله فقد تمت ولايته ؛ والمحب على الحقيقة لاسلطان على قلبه لغير محبوبه ، ولا مشيئة غير مشيئته . فاذن من ثبتت ولايته لا يكره الموت ويعلم ذلك فى قول الله تعالى (يا أيها الذين هادوا . ان زعمتم انكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت ان كنتم صادقين) فاذن الولى لا يكره الموت ان عرض عليه . ومن أحب لله من لا محبوب له سواه أحب له من لا يحب شيئا لهواه ، وأحب لقاه من ذاق أنس مولاه

كذلك يروون عن جلال الدين الرومى أنه قال فى المثنوى ماترجمته بالعربية :
ماذا عسانى أن أخاف من الموت ؛ سأموت انسانا لابعث فى عالم الأرواح والملائكة

بل سانزع روحى الملكية لاصبح مالا يخطر بعقل ولا يلم بشعور ليصدق فى" السر المكنون من (انا لله وانا اليه راجعون) (١)

ومما يؤكده المؤرخون . ان الصوفية آزروا المماليك بمصر والشام وهم الذين خلد لهم التاريخ آيات البطولة لانهم صدوا تيار البرابرة من الصليبيين والتتار وأنقذوا الاسلام من محن كادت تودى بنا جميعا ، وهؤلاء المماليك آزروا الصوفية واتخذوا منهم مخبأ يقى الاسلام خطر المهاجمين . فنى التصوف قوة الدفاع علما وعملا ونظاما . ان اصطلاحات الصوفية مثل القطب والنقباء وما الى ذلك تتطابق تماما مع نظام الجندية والرتب العسكرية حين نشأت هذه الاصلاحات (٢)

اجل ما كان كبار الصوفية يتقاعدون عن الجهاد ولا كانوا بمعزل عن ميادين المعارك وأن كانوا لم يهتموا بتدوين أخبارهم فى هذه الناحية . لانهم يفضلون عدم الاعلان والشهرة ولا يقيمون لها وزنا فهم يعملون لله وبالله ، واذا كان عند بعضهم من شرط الفتوة الملامة بل والايثار . فهم يؤدون الواجب ولا يطلبون من الناس الجزاء والشكران وانما أجرهم على الله . وكذلك المؤرخون لم يعنوا بتدوين أخبار بطولاتهم ، وانما عنوا باخبار الملوك والسلاطين أكثر من غيرهم

هذا أبو الحسن الشاذلى المتوفى سنة ٦٥٦ هـ مع أنه كف بصره فى أخريات اعوام حياته كان يتردد على المنصورة ، والمنصورة لم تكن متنزها فى ذلك الوقت ولا كانت محلا للتكايا والخانقاه يقيم بها الدراويش يرتلون الأوراد والأذكار وما الى ذلك . بل بناها الكامل الأيوبى سنة ٦١٦ هـ لتكون قاعدة لادارة الاعمال الحربية والعسكرية وقلعة لسد تيار الصليبيين الذين نزلوا دمياط وحاصروها واحتلوها سنة ٦١٢ هـ ومنها كانوا يريدون الوصول الى القاهرة واحتلال البلاد وبقيت كذلك حتى سنة ٦٤٨ هـ تعج بالجند وتزخر بالعتاد الحربى والسلاح وحدثت بها الموقعة الكبرى التى قضت على كل أمل

(١) فصول فى المثنوى ترجمة الدكتور عبدالوهاب عزام بك

(٢) محاضرة المرحوم الشيخ التفتازانى بجمعية الشبان المسلمين بالاسكندرية صيف ١٩٣٢

للصليبيين فانهزمت جيوشهم فى حملتهم السالفة واسر فيها لويس التاسع ملك فرنسا وتحقق النصر التام للجيوش الاسلامية أو بالاحرى للجيوش المصرية .

ولنا أن نتساءل ماذا كان شأن هذا الصوفى الكفيف البصر وماذا كان عمله بالمنصوره ؟ هل كان هناك يؤدى طقوس التصوف وتقاليده فتقام له مجالس الذكر وحفلاته ؟ أم هل كان هناك بمعزل عن الناس معتكفا فى خلوة أو خانقاه يتلو أوراده واحزابه وذكره وعبادته ؟ كلا . فليس بالمنصورة فى ذلك الوقت خلوات ولا خانقاه . بل وليس للناس متسع من الوقت لهذه الاغراض . بل المنصورة تعج بالجند والسلاح والعتاد والقوم مشغولون بالدفاع وأخبار المعارك و بتحقيق النصر على العدو الذى داهم البلاد ووضع أقدامه بها يريد أن يسيطر عليها ، فالنزعة العسكرية هى السائدة فى جميع انحاء الاقطار والامصار . ولا بد أن يكون لهذا الكفيف البصر عمل متصل بالموضوع الذى يشغل الناس . يروى ابن عطاء الله السكندرى فى لطائف المنن خبر اجتماع حافل ضم عظماء العلماء والصوفية فى خيمة بالمنصورة بينهم ابو الحسن الشاذلى والعز بن عبد السلام وابن دقيق العيد ومحى الدين بن سراقه ومجد الدين الاخميمى ومكين الدين الاسمر وأبو عبد الله الشاطى ورسالة القشيرى تتلى بين يديهم فتكلم كل منهم بما عن له ثم الحوا على ابى الحسن الشاذلى فى الكلام فتكلم فاعجب بكلام القوم الى ان خرج العز بن عبد السلام وقال ما رأيت كلاما أقرب الى الله من كلام ابى الحسن الشاذلى الخ . ولا اعتقد أن هذا الكلام كان فى التصوف اى فى السلوك والمقامات فحسب بل كان فى موضوع الجهاد والاستشهاد وبيع النفس فى سبيل الله أى فى نفس الموضوع الذى يشغل بال الناس ويسيطر على افكار الناس والا لما كان للكلام طلاوة وحلاوة سيما وبين المستمعين سادة علماء الدين والشريعة وما كان لمثل هؤلاء أن يتذاكروا أو يتدارسوا الا ما يتفق والمناسبات الملابسة والنزعة السائدة

فاذا كان الصوفية ينزعون هذه المنازع بمصر فقد كان الأمر كذلك بالشام فقد روت المصادر العربية ان الملك المعظم توران شاه لما تم النصر له وأسر لويس التاسع أرسل غفارته الى نائبه بدمشق جمال الدين بن مطروح فلما وصلت غفارة ملك الفرنسيس

لمجالس الأمير كان نجم الدين بن اسرائيل الشاعر الصوفى المعروف بأقواله المشهورة بالنظريات العنيفة الصوفية والذى وضعه المتسننون ضمن القائمة السوداء بين المطعون فى دينهم ارتجل ابن اسرائيل هذا ثلاثة مقطوعات تمدح بها الملك والأمير النائب قال فى احداها

ان غفـــارة الفرنسيس التى جاءت حبـــاءاً لسيد الأمراء
ببياض القرطاس فى الكون لكن صبغتهـا ســـيوفنا بالدماء

فما شأن هذا الصوفى وما شأن الصوفية بالسيوف والدماء اذا لم يكن لهم عمل وشأن بالحالة الحربية والتجريدات العسكرية فكانوا بانفسهم فى الميدان

أما جمال الدين بن مطروح فهو ذلك الشاعر الكبير صاحب القصيدة المشهورة الذى أرسلها للملك توران شاه مع رسوله الذى وفد بغفارة ملك الفرنسيس لدمشق التى قال فيها

قل للفرنسيس اذا جئتـه مقال نصح من قؤول فصيح
أتيت مصرا تبتغى ملكها تحسب ان الزمر ياطبل ريح
فساقك الحين الى أدهم ضاق به عن ناظريك الفسيح
وكل أصحابك أودعتهم بحسن تدبيرك بطن الضريح
سبعون الفا لايرى منهم الا قتيل أو اسير جريح
وقل لهم ان ازمعوا عودة لاخذ ثأر أو لفعل قبيح
دار ابن لقمان على حالها والقيد باق والطواشى صبيح

هذا وقد قصدت بهذه الروايات أن الصوفية لم يكونوا بمعزل عن ميادين الجهاد وكل مايختص بالدفاع عن البلاد حتى كفيف البصر من شيوخهم .

وكيف لا يكون ذلك كذلك . وقد سمعوا الحديث الشريف : الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا : وسمعوا فى القرآن الكريم (فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد) فهم يتمنون الموت ويطلبونه ولا يكرهونه اذا عرض عليهم وهم يطلبونه اذا لم يجدونه واقعيـا . يتخذون للحصول عليه وسائلهم الخاصة حتى يحصلون عن الموت الاختيارى وهو موت النفس عن الشهوات وعن الرزائل لتشرق هذه النفس بنور ربهـا وتسعد بقربه مصداقا لقول الله تعالى ولحديث الرسول ﷺ . وأى درجة أعـلا واسمى من الاستشهاد فى سبيل الله وفى نصرة دينه . فالذى يجب أن نعرفه أن كل متصوف يتخلف

من الصفوف الأولى للمجاهدين أو يحرص على الحياة الذميمة ثم يزعم بعد ذلك أنه صوفى فهو صاحب دعوى وكذاب ومنافق اما اخلاقهم فى كمل الصوفية والصادقين منهم فهو افتيات صريح على الصوفية وعلى التصوف الصادق

نحن نرى الى اليوم المواكب التقليدية للصوفية تمر أمام أعيننا فى الحفلات والمواسم الدينية فنراها تتخذ شكل الطوابير العسكرية عند عرضها ونرى الصوفية فى هذه المواكب يحملون البنود والرايات ويحملون السيوف وآلات الحرب وان كانت رمزية ويدقون الطبول، وما كانت هذه التشكيلات وهما بل حقيقة من قبل حافظت على وضعها وشكلها القديم فظن السذج والبسطاء وناقدوا التصوف . انها لعبا وظن جهلة الصوفية أنفسهم ان هذه عادات وأوضاع صوفية تعبدية وغاب عنهم حقيقة الأمر

وانى اعتقد ان المنظمات الدينية الحديثة التى لها نزعات صوفية ، قد تدرجت فتجددت الى وضع عصرى واصطبغت بصبغة رياضية عسكرية صوفية حديثة على غرار المواكب الصوفية التقليدية ، ومن ذلك كشافة الشبان المسلمين وجوالة الاخوان المسلمين وفرق مصر الفتاة وغيرها

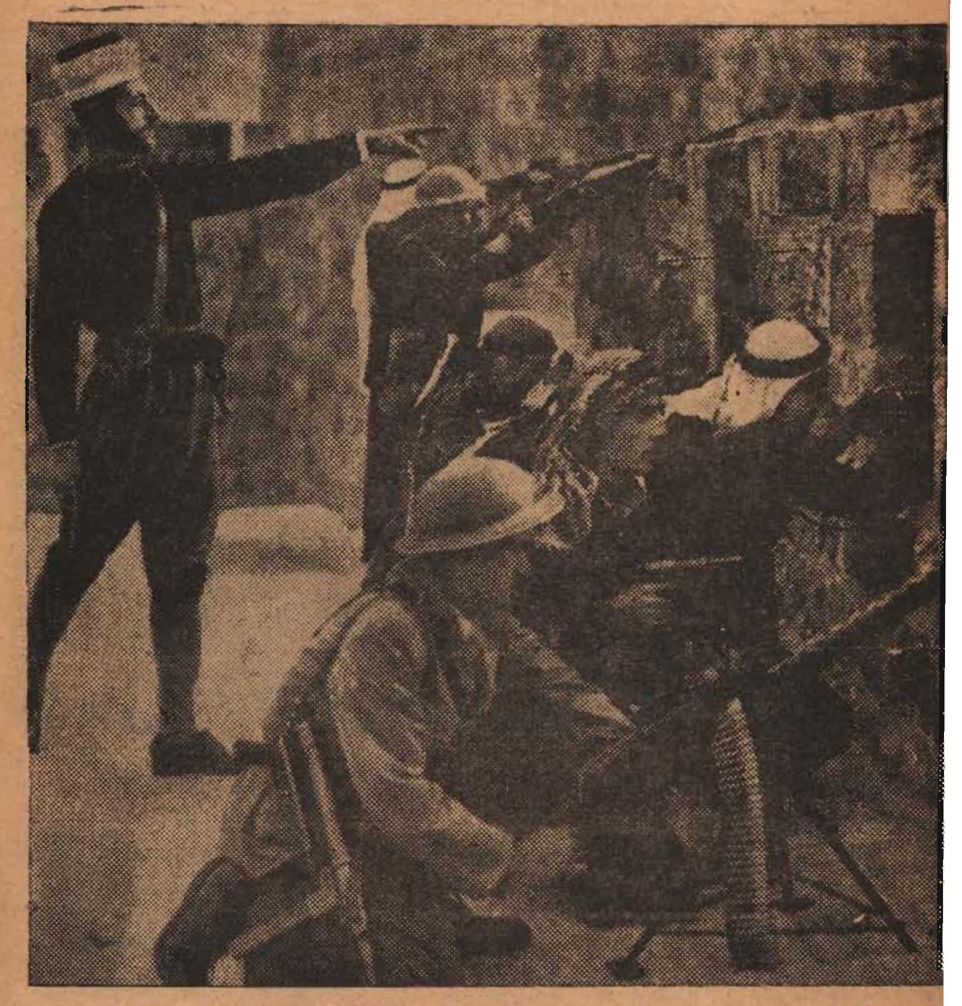
ولا نذهب بعيدا الى التدليل بصحة رأينا هذا ، فاننا اذا رجعنا قليلا الى ماقبل النصف قرن الماضى بقليل لوجدنا أن زعماء الصوفية وشيوخ التصوف كان لهم شأن ملحوظ كبير فى المواقف الوطنية بل والسياسية . وكانت نزعة الجهاد والوطنية أصيلة فيهم فبيت البكرى والسادة الوفائية بمصر وبيت المهدى والميرغنى والختم بالسودان ، وبيت السنوسى والمختار بطرابلس وبرقة وبيت الحسينى والدجانى وابو الهدى الصيادى والقاوقجى بسوريا وشرق الأردن ولبنان وفلسطين ، وغير هؤلاء وهؤلاء بالبلاد الاسلامية ممن لانحصيهم بالمشرق والمغرب ، فكلها بيوت صوفية قديمة واصحابها من كبار الشيوخ وزعماء التصوف وها نحن الآن ومشكلة فلسطين تشغل أذهان العالم الاسلامى وتشتعل أوار معاركها تنشر جريدة الاهرام فى ابريل الماضى هذه الصورة التالية :

الشيخ محمود أبو العزايم يودع مريديه



الشيخ محمود ابو العزايم الذى جهز على نفقته الخاصة مايتين متطوع من مريديه ودربهم بمعسكر مصر الفتاة بمنسافيس وهاهو بالصورة يودعهم فى محطة المنيا وهم ذاهبون الى الميدان

الشيخ نسيب البكرى فى احدى معارك القدس



كما ينشر المصور صورة الشيخ نسيب البكرى وهو فى زيه الصوفى بعمامته
ولباسه العسكرى يقود اتباعه فى احدى معارك القدس

فما هو اذن مفهوم التصوف كما يجب ان يكون وكما فهمناه من شيوخنا

التصوف هو الصفاء الروحى أى استشراق المعرفة من جوانب القلب بايقاد مشعله وربط القلب برباط وثيق ببارى، النسم وواهب النعم ومفيض الوجود، وملهم الحكم مع العمل فى الحياة لاداء الواجب

(١) الواجب الدينى باداء العبادات والتماس التقوى منها ومحبة الله وتوحيده الخالص

(٢) الواجب للمجتمع بعمل البر والخيرات

(٣) الواجب للانسانية بتكريم الانسان والعطف على الجماعة ومحبتها

(٤) الواجب للوطن بالذود عنه والعمل على عزته

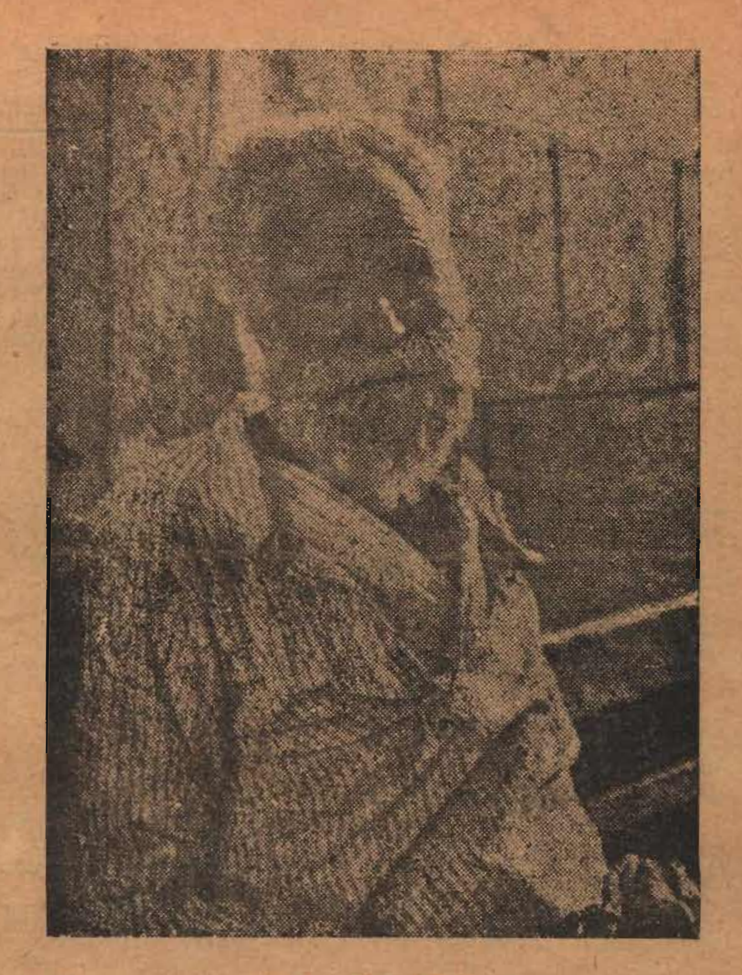
اما وان هذه الواجبات كلها قد حث عليها الدين وحددها . ولا خلاف فى ذلك بين العقيدة والاحكام مهما اختلفت العصور والبيئات والامصار . فالتصوف على هذا الوضع لايختلف مع الدين ولا مع احكام الشريعة وسنة الصدر الاول وهو مذهب لاغبار عليه

دستورنا فى التصوف

طريق الشـــــاذلية

فطريق الشاذلية لاتؤمن بالبله ولا بالشعوذة ولا بزوال العقل ، والفناء الحقيقى عندهم هو حب الله مع أداء الواجب . حتى ان المأخوذ بالفناء فى الحب اذا ذهب عقله لايعتبر حجة للسالكين يترسم المريدون سبيله ومنهجه على الصورة العارضة له ؛ اما اذا عادت له حالته الطبيعية من كمال العقل وانتهاج ميزان الشرع اصبح بعد ذلك ممن يصح الاقتداء به

وفى الصورة التالية : صورة مجذوب مأخوذ بضريح السيدة زينب أخذ يتمتم بكلام غير مفهوم كما نشرته جريدة النداء بشهر مايو الماضى لمناسبة الاحتفال بمولد حفيدة الرسول صلى الله عليه وسلم ورضى الله عنها . فليس أمثال هذا المجذوب ممن يقال فيهم انه من الصوفية



مجذوب من مجاذيب السيدة يجلس الى جوار الضريح وهو يتمتم بكلمات
لايعرف سرها الا امثاله

وتأمر طريق الشاذلية بالقصد وعدم التغالى

ومما يروى عن ابى العباس المرسى . انه قال: دخلت على الشيخ أبى الحسن الشاذلى وفى نفسى أن أكل الخشن والبس الخشن فقال لى . يا ابا العباس. اعرف الله وكن كيف شئت

ومما قال ابن عطاء الله السكندرى . دخلت على الشيخ ابى العباس المرسى وفى نفسى ترك الاسباب والتجرد وترك الاشتغال بالعلم الظاهر قائلا أن الوصول الى الله لايكون على هذه الحالة . فقال لى من غير أن أبدى له شيئا ، صحبنى بقوص انسان يقال له ابن ناشيء وكان مدرسا بها ونائب الحكم فيها . فذاق من هذا الطريق شيئا على أيدينا فقال لى . ياسيدى اترك ما انا فيه واتفرغ لصحبتك ؟ فقلت له ليس الشأن ذا ؟ ولكن امكث فيما أقامك الله . وما قسم لك على ايدينا هو اليك واصل . ثم قال . هكذا شأن الصديقين لايخرجون من شيء حتى يكون الحق هو الذى يتولى اخراجهم . فخرجت من عنده وقد غسل الله تلك الخواطر من قلبى ، وكأنها كانت ثوبا نزعته ورضيت عن الله فيما اقامنى فيه

ومما يروى عن ابى الحسن الشاذلى فى تفسير (يسروا ولا تعسروا) أى دلوهم على الله ولا تدلوهم على غيره فان من دلك على الدنيا فقد غرك ، ومن دلك على الاعمال فقد أتعبك ، ومن دلك على الله فقد نصحك

وقال ليس الشأن أن تطوى للولى الارض فاذا هو بمكة أو غيرها من البلاد وانما الشأن أن تطوى عنه صفات نفسه فاذا هو عند ربه . خرج الزهاد والعباد من هذه الدار وقلوبهم مقفلة عن الله (مستغرقة فى الزهد والعبادة لنفسهما) ومما قال . اذا خالف كشفك الشريعة فاضرب بالكشف عرض الحائط وتمسك بالشريعة فقد ضمن الله لك النجاة فى التزام الشريعة ولم يضمنها لك فى الكشف المخالف لها ، وكان أبو الحسن الشاذلى لا يستخلف أحدا حتى يكون قد برع فى علم الشريعة وتبحر بها ، وكان يقول ليس هذا الطريق بالرهبانية ولا بأكل الشعير والنخاله وانما هو بالصبر على الاوامر واليقين فى الهداية

قال تعالى (وجعلنا كم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) فلا تسرف بترك الدنيا فتغشاك ظلمتها وتنحل أعضاؤك بها فترجع لمانقتها بعد الخروج منها بالهمة أو بالفكرة أو بالارادة أو بالحركة

ومن النفاق عند العبد التظاهر فعل السنة ، والله يعلم منه غير ذلك ، ومن الشرك بالله اتخاذ الأولياء والشفعاء دون الله ، والله يقول (مالكم من دون الله من ولى ولا

شفيع أفلا تتذكرون) ومن سوء الظن بالله أن يستنصر العبد بغير الله من الخلق قال الله تعالى (من كان يظن أن ينصره الله فى الدنيا والآخرة فليمدد بسبب الى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده مايغيظ)

ويقول فى العلم . أن الولى فى مقامه لابدأن يبقى معه طبيعة علمية عليها يترتب التكليف وذلك كما يكون الانسان فى البيت المظلم فهو عالم بوجوده وان كان غير شاهد له

وفى ذلك يقول أبو العباس المرسى أيضا . من لم يتغلغل فى هذه العلوم مات مصرا على الكبائر وهو لا يعلم

ويتفق مع الغزالى فى تصوفه

فالاخلاق عند الغزالى هى تطهير الجوارح تطهيرا كاملا عما يلوثها الفقهاء ، وخصص لآداب التصوف فصولا فى كتاب الاحياء وغيره من كتبه صال فيها وجال وأفصح واصبح نسيج وحده بين رجال الفكر الاسلامى . فان المبادىء الاخلاقية النبيلة التى وصفها وشرطها للمؤمن جديرة بايجاد مجتمع انسانى ملائكى فاضل سليم من الضغن ومن التنازع بعيد عن الفحش والرزيلة ، وكذلك النظم التى سنها ووضعها للمجتمع وطريق الاتصال والتعامل وعوامل الاتحاد والمحبة خليقة بانشاء دولة عالمية متحابة متعاونة متفانية فى الفضيلة تهدف الى وجهة عليا يرفرف عليها علم المحبة ويربطها قانون الأخوة ويسعدها السلام الدائم للروح والقلب والاحساس

وقد كان رجال التربية واساتذة الفكر المثاليين يفكرون فى ايجاد طبقة انسانية ممتازة كاملة الرجولة قوية الحيوية سامية الخلق والفكر متلائمة التناسق

والغزالى يجعل الصوفية من ذلك النوع الممتاز من البشرية السعيدة الطاهرة

والغزالى يربط التصوف بالشريعة رباطا لا ينفصم فيجعل التمسك بقواعد الشريعة غاية السالك فاذا خالف الشريعة ولو سار على الماء وطار فى الهواء فهو شيطان . الا أنه مزج العبادات كلها بروح التصوف فاطلق فيها النور والروح اطلاقا يبعث فى القلب نشوة الايمان بالله والخوف والرجاء فيه ، ويجعل من ذلك فرحة للحس المطمئن الى الواجب المقدس .

ويقول فى كتابه (ميزان العمل) اعلم ان سالك سبيل الله تعالى قليل والمدعى فيه كثير ونحن نعرفك علامتين له

الأولى : ان تكون جميع أفعاله الاختيارية موزونة بميزان الشرع موقوفة على حد توقيعاته ايرادا وأصدارا واقداما واحجاما . ولا يمكن سلوك هذا السبيل الا بعد التلبس بمكارم الشريعة كلها ولا يصل فيه الا من واظب على جملة النوافل فكيف اليه من أهمل الفرائض .

الثانية : والسالك لسبيل الله يعرض عن الدنيا اغراضا لو ساواه الناس كلهم لخرب العالم ومع كل هذا فالغزالى يأمر بتعلم العلوم الدنيوية والعمل للحياة الدنيا . لان المثالية ليست شرعة مباحة للجميع

شيوخنا واخواننا



الشيخ احمد البخاري

هو السيد احمد البخارى الحسنى الحسينى ولد رحمه الله بدمياط حوالى سنة ١٨٣٠ وتوفى بالاسكندرية سنه ١٩٢٤ كان عالما فاضلا تقيا ، تخرج من الازهر الشريف ومن شيوخه فى علوم الشريعة الشيخ الباجورى ومنه أخذ أجازة التدريس والفتوى ومن شيوخه فى طريق القوم السيد حسين المصيلحى الخلوتى والسيد أبو المحاسن القاوقجى الشاذلى ، وقد تولى القضاء الشرعى أربعين عاما وظل يخدم الطريق لهداية الناس وإرشادهم الى الحق طيلة حياته ، وقد كان حاضر الذهن نافذ البصيرة غزير العلم سلس العبارة قوى الايمان بالله فخورا بانتسابه الى العترة الطاهرة النبوية غيورا على الاسلام والمسلمين محبا لاهل العلم عطوفا على الفقراء والمساكين وله كثير من النفحات والبركات

الشيخ سليمان فوزى



لشيخ سليمان فوزى يتوسط الجالسين وعلى يمينه السيد محمود صادق المدرس فالشيخ مصطفى
 التاجر بكفر الزيات وعلى يساره محمد بك صبحى من كبار الموظفين من رجال الادارة
جال التعليم بالقاهرة فالسباعى افندى نجم التاجر بابى كبير ومن الخلف على سالم عمار
ف) فسليمان افندى محمد المدرس فعلى افندى عبد السلام الموظف بوزارة الصحة
ولد الشيخ سليمان باكوه الحصه منوفية سنة ١٨٧٧ م وتوفى بها سنة ١٩٤٥ م

تصوف أستاذنا الشيخ سليمان فوزى

كان الاستاذ رحمه الله متواضع الاخلاق لينا سهلا كثير العلم رائق التصوف هادىء الفكرة كامل الأدب ، مخلصا فى محبة اخوانه ومريده . لا يكترث بالدنيا وما فيها من بهجة وزينة ، ولقد عرفنا منه كيف نسلك طريق القوم من غير تزمت فى الدين ، ومن غير عنف او تغالى فى سلوك التصوف وفهم نظريات الصوفية ؛ وقد كان شديد الحرص على التمسك بخالص التوحيد وحريصا على ربط مواثيق المحبة والأخاء بين الاخوان ، وكان ينقلنا دائما من التشاؤم الى التفاؤل ويدفعنا للعمل فى الحياة ويحفزنا على النشاط فيها مع الاحتفاظ فى كل الحالات بحيوية القلب وارضاء الضمير وكان يدعو الى الحب والتسامح ويتمثل قول الشاعر :

رأى المجنون فى البيداء كلبا　　فجر له من الاحسان ذيلا
فلاموه على ما كان منه　　وقالوا كم أنلت الكلب نيلا
فقال دعوا الملامة ان قلبى　　رأته مرة فى حى ليلى

وكان يذكر كثيرا قول ابى الحسن الشاذلى (خلوة الشاذلى فكره) تدليلا على كراهيته للبطالة واتخاذ الخلوة وسيلة الى الفرار من العمل فى الحياة

وكان يعجبه خطة جلال الدين الرومى . إذ كان يحث على العمل فى الحياة ويدعو الى العشق والمحبة وينادى بالاختيار ويحفز الناس على المسير قدما ويذكر قوله فى ذلك ان الحياة جهاد مستمر فلا ينبغى للمجاهد أن يسكن فيها ساعة

فالغريق يجهد نفسه ويضرب بيديه على كل عشبة لعلها تنقذه من الخطر ، والحبيب (اى الله) يحب الاضطراب فالجهد الذاهب سدى خير من النوم . ان الملك نفسه (الله) ليس فارغا من العمل ولهذا يقول الرحمن (كل يوم هو فى شأن) ويرى ان الشدائد معارج الكمال مع الصبر عليها فيقول : فرجل الطريق أو رجل الله يلقى الخير والشر واللذة والألم راضيا موقنا أنه بالألم يكمل ويرقى حتى يبلغ غايته ، فالنواح من الأرواح المجاهدة مناجاة دائمة ورقى مستمر

وكان الأستاذ ينكر ذاته كاستاذ فكثيرا ما كان يقدم منا أحد المريدين ليصلى

اماما ويصلى هو معنا مأمومين له ، وكان لايحب أن يتصدر المجالس ولا يحب ان يحتكر الـكلام فيها . بل يفسح للجميع الـكلام ويوسع صدره لـكل مايقال كانما يريد أن يتعرف أراء واتجاهات المتكلم . أوبالاحرى مقدار ما استفاد المريد من سلوكه ليتمكن من مريديه لتخليص أفئدتهم من الشكوك والاوهام وردهم الى مقام اليقين

هاهو يدعونى مثلا لقراءة بعض الـكتب ويستمع الى . ثم يستوضحنى بعض النقط ويتجاهل بعض المسائل ، ويدفع بعض السامعين لسؤال غامض ، وها أنا أردبما وسعنى على . فاذا أصبت استبشر واذا اقتربت من مواقع الخطء أو الشطط أرقفنى ليوضح الابهام وليزيل الغموض .

نقد نظريات الصوفية

ينقد ابن تيمية نظريات الصوفية بل يقسو فى الطعن عليهم فيقول :

ـ هؤلاء القوم من أعظم ضلالهم مشاركتهم للفلاسفة ، وتلقيهم عنهم . فان هؤلاء القوم أبعد الناس عن الاستدلال بما جاء به الرسول ﷺ ، الذى بعث بالبينات والهدى يبين الادلة العقلية ويخبر الناس بالغيب الذى لايمكنهم معرفته بعقولهم

وهؤلاء يقولون : أنه لم يفد الناس علما بخبره ولا بدلالته ، وانما خاطب خطابا جمهوريا ليصلح به العامة ، فيعتقدون فى الرب والمعاد اعتقادا ينفعهم وان كان كذبا ، وحقيقة كلامهم ان الأنبياء تكـذب فيما تخبر به المصلحة ، فامتنع ان يطلبوا من خبرهم علما . واذا لم تـكن اخبارهم مطابقة للمخبر ، فـكيف يثبتون أدلة عقلية الى ثبوت ما أخبروا ؟ ولهذا لايعتقدون بالقرآن ولا بتفسيره ولا بالحديث ولابـكلام السلف ، وان تعلموا من ذلك شيئا فلأجل تعلق الجمهور به ، ليعيشوا بينهم بذكره لا لاعتقاد موجبه من الباطن (١)

فابن تيمية يتمسك بظاهر اللفظ وحرفية النصوص ويرفض كل تأويل وتعليل ، ويحكم على الصوفية حكما صارما بأنهم يجارون الفلاسفة ، وهو يكره الفلسفة اطلاقا لذاتها ، ولـكنه ينسى تقدير العوامل النفسية والظروف والاحوال التى احاطت بالصوفية

---

(١) مجموعة الرسائل لابن تيمية

ولا يكفى للحكم على الشيء البحث والاستنباط والنظر فى النصوص بلا تقدير للعوامل النفسية والدوافع التى أوجدتها ، مع أن تقدير هذه العوامل عامل كبير فى الحكم عليهم وأكبر هذه العوامل هى التجربة والمشاهدة والذوق

وقد يقال ان الذوق منهج لا يتفق مع طبيعة الحياة ولا يفسر كل شيء ولا يتفق عليه جميع الناس ولا تقبله جميع العقول وسواء صح هذا أولم يصح ، فقد فاز الصوفية بابراز ناحية من العلوم الروحية والمعارف العقلية عن طريق أذواقهم وتجاربهم ومشاهداتهم وهى عندهم علوم الباطن ، وعلوم الحقيقة ، وليست هذه أثر من اعتناق مذاهب فلسفية وان تشابهت فى ظاهرها بتلك المذاهب ، ولماذا لا تكون هذه العلوم تلقائية ؟ !

يظن المتمسكون بحرفية الالفاظ والنصوص ان هذا بعد عن الدين أو نقض له ، وان المنقوض هو الدين نفسه . اما الحقيقة فهى ان هذه العلوم الروحية والأذواق الصوفية كانت محل ضعف فى عقولهم ، وان المنقوض هو ذوق قديم حل محله ذوق جديد فالشعرانى يقول : (ان الولى لا يأتى بشرع جديد ولكنه يأتى بالفهم الجديد) (١)

ولو جلا هؤلاء الناقدون مرآة قلوبهم كما جلاها الصوفية والتمسوا صوراً من هذه المثل العليا الصوفية . لوجدوا ان الاساس الذى يستمد منه الصوفية اذواقهم وعلومهم هو الاساس الذى يستمد منه أولئك المتمسكون تعاليم الدين ولوجدوه معقولا مقبولا ولوجدوا انهم يقتربون به من صميم الدين

الكشف الباطنى ونظرية المعرفة

لما ظهرت طرائق الكلام وتصدت الى شرح العقائد الدينية وبرهنت على صحتها فى طريق النظر العقلى ، وبالرغم من تطور الحياة العقلية العربية لم تصل الى مرتبة تطمئن اليها قلوب جميع المسلمين فمن أجل ذلك توجهت بعض النفوس الى التعرف بالخالق والاتصال به لا عن طريق النظر العقلى وحده بل بطريق الكشف الباطنى والمشاهدة أيضا ، فعمد الصوفية الى المجاهدة فى سبيل الوصول الى هذه الغاية والقصد منها محو كل مايحول دون الاتصال المباشر من العلائق المادية وهتك أستار الحجب التى تقوم بين

---

(١) الطبقات الكبرى للشعرانى

عالمى الملك والملكوت . فالمسلم التقى العابد شديد الحاجة الى التقرب الى الله ليتمكن من القيام بخدمته عن قرب منه ، وليحظى بمشاهدته وليسعد بمعرفته بدون وساطة البرهان العقلى فى بيان الحقيقة ولا الاقتناع الحسى ولكن بالمعرفة الدقيقة ، ووسيلة الصوفية فى ذلك لاتكون الا بالنأى عن كل شيء سواه ، وهذه هى السعادة والغبطة التى يدركونها فى مقام الشهود ، ينكشف للروح فى ذلك المقام الغطاء فتدرك فى العلوم مالا يدرك صاحب الحواس . فالمواهب الربانية والعلوم اللدنية من حقائق الوجود التى تغيب عن الحس وتغيب عن النظر ، وفى ذلك يقول ابو الحسن الشاذلى : الحقائق هى المعانى القائمة فى القلوب ، وما اتضح لها وانكشف من الغيوب ، وهى منح من الله تعالى وكرامات وبها وصلوا الى البر والطاعات ودليلها قول رسول الله ﷺ لحارثة كيف أصبحت ؟ قال أصبحت مؤمنا حقا (الحديث)

ومن أقوال ابو الحسن الشاذلى : العلوم التى وقع الثناء على أهلها ، وان جلت ، فهى ظلمة فى علوم أهل التحقيق وهم الذين غرقوا فى تيار بحر الذات وغموض الصفات فكانوا هناك بلاهم ، وهم الخاصة العليا الذين شاركوا الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام فى أحوالهم . فلهم فيها نصيب على قدر إرثهم من مورثهم . قال النبى ﷺ (العلماء ورثة الأنبياء) يقومون مقامهم على سبيل الحكمة ، لا على سبيل التحقيق بالمقام والحال . فان مقامات الانبياء عليهم الصلاة والسلام قد جلت أن يلمح حقائقها غيرهم

فمن أمده الله بنور العقل الاصلى شهد موجودا لاحول له ولا غاية بالاضافة الى هذا العبد واضمحلت الكائنات فيه ، فتارة يشهدها فيه كما يشهد البناء بنية فى الهواء بواسطة نور الشمس ، وتارة لا يشهدها لانحراف نور الشمس عن الكوة . فالشمس الذى يبصر بها هو العقل الضرورى بعد المادة بنور اليقين ، واذا اضمحل هذا النور ذهبت الكائنات كلها وبقى هذا الموجود . فتارة يفنى وتارة يبقى . حتى اذا أريد به الكمال نودى فيه نداء خفيا . لاصوت له فيمد بالفهم عنه . الا ان الذى يشهده غير الله تعالى ليس من الله فى شيء . ثم قال أوصانى أستاذى رحمه الله تعالى فقال : حدد بصر الايمان تجد الله فى كل شيء ، وعند كل شيء ، ومع كل شيء ، وفوق كل شيء ، وقريبا فى كل شيء

ومحيطا بكل شيء . بقرب هو وصفه ، وباحاطة هى نعته وعد عن الظرفية والحدود ، وعن الاماكن والجهات ، وعن الصحبة والقرب بالمسافات ، وعن الدور بالمخلوقات والحق الكل بوصفه الأول والآخر والظاهر والباطن . كان الله ولاشيء معه

فطريق المحبو بين الخاصة بهم ترق منه اليه به فمحال أن يتوصل اليه بغيره . فاول قدم لهم بلا قدم اذا التى عليهم نور ذاته . فغيبهم بين عباده وحبب اليهم الخلوات . وصفرت لديهم الاعمال الصالحات وعظم عندهم رب الارضين والسموات فبينما هم كذلك . اذ البسهم ثوب العدم فنظروا فاذا هم لاهم، ثم اردف عليهم ظلمة غيبهم عن نظرهم . فصار نظرهم عدما لاعلة له . فانطمست جميع العلل وزال كل حادث فلا حادث ولا وجود . بل ليس الا العدم الذى لاعلة فيه وبقى من أشير اليه لا وصف له ولا صفة ولا ذات واضمحلت النعوت والاسماء والصفات كذلك ، فاسم ولا صفة ولا ذات . فهناك ظهر من لم يزل ظهورا لاعلة فيه . بل ظهر بسره لذاته فى ذاته ظهورا لا أولية له بل نظر فى ذاته لذاته فى ذاته ، وهناك يحيا العبد بظهوره حياة لاعلة لها . وصار أولا فى ظهوره لا ظاهرا قبله . فوحدت الاشياء باوصافه وظهرت بنوره فى نوره سبحانه وتعالى ثم يغطس بعد ذلك فى بحر بعد بحر . الى ان يصل الى بحر السر فاذا ادخل بحر السر غرق غرقا لاخروج له منه أبد الاباد . فان شاء الله تعالى بعثه نائبا عن النبى ﷺ يحيى به عباده وان شاء ستره ، يفعل فى حكمه مايشاء

فاذا أمد الله العبد بنور اسمائه قطع ذلك كلمح البصر . أو كما شاء الله تعالى نرفع درجات من نشاء

ثم أمده الله تعالى بنورالروح الربانى . فعرف هذا الموجود فرقى الى ميدان الروح الربانى . فذهب بجميع مايتحلى به هذا العبد وما تحلى عنه بالضرورة وبقى كلا موجود ثم احياه الله بنور صفاته فادرجه بهذه الحياة فى معرفة هذا الموجود الربانى فاستنشق من مبادىء صفاته كاد يقول (هوالله) فاذا الحقته العناية الازلية نادته . الا ان هذا الموجود هو الذى لايجوز لاحد أن يصفه ، ولا أن يعبر عنه بشيء فى صفاة لغير أهله . لكن بنور غيره

فاذا أمده الله بنور سر الروح . وجد نفسه جالسا على باب ميدان السر فرفع همته

ليعرف هذا الموجود الذى هو السر فعمى عن ادراكه فلاشى بجميع اوصافه كانه ليس بشىء
فاذا امده الله تعالى بنور ذاته . أحياه حياة باقية لاعاقبة ولا غاية لها فينظر جميع المعلومات بنور هذه الحياة ووجد نور الحق شائعا فى كل شىء لايشهده غيره فنودى من قرب . لاتغتر بالله فان المحجوب فى حجب عن الله بالله ، اذ محال أن يحجب غيره ، وهنالك يحيا حياة استودعها الله تعالى فيه

فالصوفية يؤمنون بالكشف الباطنى ويؤمنون بالهامات الروح ويجعلون هذه الالهامات وسائل وغايات للارشاد والهداية

ولقد شغلت هذه المسألة رجال الفكر الاسلامى كما شغلت غيرهم قبلهم من المفكرين والفلاسفة .

وكان فلاسفة اليونان الماديون لايرون للمعرفة بابا غير الحواس الخمس المتصلة بالعالم الخارجي ويقولون ان ليس فوقها مصدر تهبط منه المعرفة غير الخيال والتصور فلا يؤمنون بالكشف الباطنى ويسخرون ممن يقولون بغير ذلك من أرباب القلوب والرياضة العقلية حتى كانوا يتمنون زيادة هذه الحواس الخمس ليتمكنون بها من ادراك جمال الكون واسرار الوجود الظاهر أكثر مما أدركوا بهذه الحواس

وعلماء الدين تمسكوا بما جاء به الرسل والأنبياء وما اخبروا به من انباء الغيب

والفلاسفة العقليون قالوا : ليس هناك وسائل لمعرفة الحقيقة غير المنطق والعقل

والعلماء قالوا : ان طريق المعرفة هى الكشف العلمى التجريبى ووسائله وأدواته

أما الصوفية : فقد ذهبوا للكشف عن الحقيقة بطريق الوجدانيات من داخل النفس بايقاد مشعلها والنظر فيها محاولين التوفيق بين هذه الطرائق وحجتهم فى ذلك قول سقراط (اعرف نفسك بنفسك) وما أثر عن النبي ﷺ (من عرف نفسه فقد عرف ربه) وهم بذلك يحاولون الجمع بين الفلسفة والدين والعلم وبين ماهو من حظ العقل وما هو من حظ القلب وماهو من حظ التجارب

لذلك اهملوا الظواهر الخارجية المحيطة بالانسان المدركة بواسطة المشاعر الخمس وجعلوا طريق الادراك الحقيقى من القلب . فالقلب هو الذى يفيض بالمعرفة الحقة وكل ماتأتى به الحواس ليس الا خداع وغلط

ولقد أشاد الغزالى بمعرفة القلب ودافع عنه فى كتاب الاحياء وأتى بكثير من البراهين الشرعية والحجج العقلية والنقلية على صحة طريق الصوفيه . وتكلم عن اكتساب المعارف بالالهام ، وذكر كثيرا من شواهد الشرع والتجارب وأظهر أن روح الاسلام لم تكن ضد الصوفية ولا خصما لهم فى مشاهداتهم وادراكهم

وقد استطاع الغزالى ان يبنى للصوفية صرحا متينا وركنا حصينا ، واستطاع أن يجعل من التصوف علما واضحا مهذبا لتفوقه العلمى ولدراسته المستفيضة للعلوم الفلسفية وللمذاهب الدينية وللمسائل التقليدية والجدلية . لانه يؤمن بان معارف الباطن طريق الهداية . لانها اتصال مباشر ؛ بالحقائق الخالدة والأسرار النورانية ، وصلة مستمرة بين العبد وربه اساسها المحبة المتبادلة والالهامات المشرقة وهو الذى يقول عن علم الباطن انه غاية العلوم .

وقال ان هذه العلوم هى التى أرادها النبى ﷺ بقوله . أن من العلم كهيئة المكنون لايعلمه الا أهل المعرفة بالله فاذا انطقوا به لم يجهله الا اهل الاغترار بالله ؛ وقال أيضا ﷺ أن للقرآن ظاهرا وباطنا وحدا ومطلقا ، وقال على رضى الله عنه وأشار الى صدره . ان هاهنا علوما لو وجدت لها حمله ، وقال ابن عباس فى قوله تعالى . الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الامر بينهن لو ذكرت تفسيره لرجمتمونى ، وقال أبو هريرة حفظت عن رسول الله وعائين ، اما أحدهما فبثثته ، وأما الآخر لو بثثته لقطع هذا الحلقوم ، وقال رسول الله ﷺ مافضلكم أبو بكر بكثرة صيام أو صلاة ولكن بسر وقر فى صدره

وان الشرع عبارة عن الظاهر والحقيقة عبارة عن الباطن ولا تناقض بينهما ولا خلاف وانما الخلاف هو اختلاف العقول والافهام والظرف والمكان فاذا تمثل الانسان شخصا مثلا أمام عينيه فى الظلمة أوعن بعد كان له نوع من العلم واذا رآه عن قرب أو بعد زال الظلام كان ادراكه أوفى من ذى قبل

وكان مالك يقول ليست المعرفة بكثرة الرواية ولكنها نور يضعه الله تعالى فى القلب ، فالمعرفة عند الصوفية غير العلم ايضا ، لأن العلم أداته العقل وأداة المعرفة عندهم القلب أو قوة كامنة فيه

ويؤيد العلم الحديث صراحة رأى الصوفية والروحانيين ويخالف الماديين كذلك فالعلم القائم على الاستقرار والمشاهدة ، يقرر أن للمعرفة وسائل أخرى غير وسائل الحواس ، ويقرر ان هناك الهامات روحية خارجة وغامضة ولا سبيل الى معرفة اسرارها ولا الى انكارها ولا الى التكهن عليها

ولقد عجز الماديون عن انكار العقل الباطنى وعن انكار التنويم المغناطيسى وعجزوا عن تشكيك النفوس فيهما ، وظهر انها ضرب من ضروب الارواح السابحة التى لايمكن للارواح البشرية أن تلتقى بها وتتحدث اليها وترشف من نبعها ومعارفها .

ودل العلم الحديث على ان الوسيط بعد ان ينام مغناطيسيا تتعطل حواسه وتتقمصه شخصية أرقى ، شخصية لها روح عاقلة واسعة الادراك سامية المعارف تتحدث عن أدق المسائل واغمض المسالك

ودل العلم الحديث فى مسألة العقل الباطنى على مشاهداته أن العقل الباطنى كثيراً ما ينفذ شعاعه فى ناحية خاصة تكون خاطفة فالحسابون على البديهة تلق اليهم المسائل الدقيقة الغامضة التى تحتاج الى تفكير وعمل فيجيبون عليها الجواب الصحيح ، ولايدرى العلم كيف ومتى حصل الحل وهناك أطفال يوقعون على الموسيقى الحانا يعجز أئمة الفن عن توقيعه ولا يعرفون كيف صنع أولئك الاطفال هذا اللحن ولا كيف تم توقيعه

وذكروا أن (موسيه) الشاعر كتب عن نفسه فقال أنا لا أعمل ولكنى أسمع فافعل فكأنما أنسانا مجهولا يناجينى فى أذنى وكذلك (لامارتين) كان يقول لست أنا الذى يفكر ولكن هى أفكارى التى تفكرلى وكان (رينيه) الشاعر يقول أنه كان ينام غالبا وهو يضع قطعة من الشعر فيستيقظ فيجدها تامة فى اليوم التالى عندما يفكر فيها وكان (سقراط) يسمع باذنيه ماتلقيه اليه الروح

ومذهب المتأملين فى العلم الحديث أيضا . يؤمن بالتأمل ويفضله على القراءات والدراسات ولا تنسى مدرسة (افلوطين) التى قامت على المناجاة الروحية والاتصال بالله ، ولا (مالبرانش) الذى يقول باتصال مستمر بين العبد وربه ويقول ان المعرفة ليست الا فيضا من الله ، ويقول ان مايبدو من العالم الخارجى ليس الا ظروفا ومناسبات لتحقيق ارادة لله . فالمخلوق يتلاشى من الخالق ويندمج الاثر فى المؤثر

وحتى (ارسطو) الذى كان واقعيا فى بحثه ورجل مشاهدة وتجربة فى استنباطه انتهى به الأمر أخيرا فى دراسته النفسية فبناها على شىء من الفيض والالهام

* * *

فالصوفية يستطيعون بشعور روحى واشراق باطنى يشع نوره فى جوانب القلب أن يصلوا الى المعرفة . وذلك الا شعاع يكشف عن الحقيقة ويكفى حينئذ أن يثبت وجودها فهم يدركون بواسطة الذوق لا بواسطة العقل (وحدة الله فى ذاته وصفاته وأفعاله) وأنه الموجود والحق وكل ماعداه باطل

والصوفى الحق - لايقيم وزنا للظاهر ، ولا يستقيم اغفال الظاهر الا لمن يؤمن ايمانا جازما بان هناك حقيقة علوية خليقة بان تشغله عن كل ما سواها فى الوجود

والحقيقة العليا - عند الصوفى الحق هى (الله) وهى الحقيقة الخالدة الثابتة وهى مصدر كل موجود واصل كل كائن فالله هو واجب الوجود فى ذاته ولاقدم لمخلوق فى هذه الصفة وكل ماسواه ليس له ذلك الوجوب الذاتى ، وكل ماليس له وجوب ذاتى فهو باطل زائل

والالوهية - عند الصوفى الحق كما يفهمها هى استغراق كامل للوجود باسره وذلك تنزيه رفيع أخضع مادته لروحانيته فاخرجها عن حدود الزمان والمكان وفى ذلك المقام استولى الله على قلبه وملك عواطفه وأحاسيسه فاستغرق ذاته ووجوده فهو لا يرى الا بدائع آياته وسريان مظاهر آثار أفعاله

ومثل هذه العبادة - هى عبادة الحب والاجلال هى عبادة التوحيد . فناء فى الله وفناء فى الحقائق الخالدة . وفناء فى السر الالهى

الحب والفنــاء

ذلك الحب الذى يربط الخالق بالمخلوق ويربط العبد بالمولى هو سر الحياة وسر الايمان والفناء فى الله . هو فناء الجزء فى الكل ففناء العاشق فى المشوق

فالحب - هو الذى سيطر على أفئدة الصوفية وأفكارهم ، فلم يستطيعوا التحرر منه فهم رغما من أنهم استطاعوا التحرر من لذات الدنيا واستطاعوا التخلص من شوائب

المادة ومن شهوات النفوس لم يستطيعوا التخلص من الحب ، وهكذا نرى المحب فى مرقعته ساجدا ، ذاهلا يرقب الآفاق فلا يرى فيهما غير محبوبه ، طويت السموات ، وزويت الارضين ، واختفت معالم الحياة فاختصرها فى كلمة واحدة هى (الله)

وما دامت غاية الصوفى الحق - هى الحق وهو الله ، فهو لا يرضى بغيره بديلا ولا يعنيه ثواب ولا عقاب ، ولا يغريه طمع من نعيم الجنة ولا خوف من عذاب النار ، فاذا هو فى ذلك المقام دائم الحضور مع الله ، دائم الشهود لله ؛ فهو يدرك الله فى كل شيء ويسمعه فى كل شيء ، ونفسه من جملة الأشياء ، وهو يدرك الله فى كل ما تفعله هذه النفس وما تريده ، يتجلى له عرش الرحمن فى قلبه ، كما يتجلى فى الأرض وكما يتجلى فى السماء ، بل ربما كان تجليه له فى قلبه أبلغ وأكمل ، وهاتين الحالتين هما حالتى الحب والفناء فى التوحيد

والفنـــاء (١)

والفناء عند الصوفية هو تمام انكار الذات وهو على ثلاث درجات

(١) فناء أهل العلم

(٢) فناء أهل السلوك والارادة

(٣) فناء أهل المعرفة المستغرقين فى شهود الحق

فاول الأمر أن تفنى قوة علمه وشعوره بالمخلوقين فى جنب علمه ومعرفته بالله وحقوقه ثم يقوى ذلك حتى يغيب عنهم بحيث يكلم ولا يسمع ، ويمر به ولا يرى وهو ابلغ عندهم فى حالة السكر ، وفناء أهل المعرفة على ثلاث درجات

(١) فناء المعرفة فى المعروف وهو الفناء علما

(٢) فناء العيان فى المعاين وهو الفناء جحدا

(٣) فناء الطالب فى الوجود وهو الفناء حقا

فالاول - غيبة العارف بمعروفه عن شهوده بمعرفته ومعانيها ، فيفنى به سبحانه عن

(١) هذا الباب ملخص من كتاب مدارج السالكين لابن القيم عند عرضه لنظريه المعرفة عند الصوفية ، ومن تعليق الأستاذ سعيد زايد عليها بمجلة الازهر

وصفه هنا ، وماقام به ، فان المعرفة فعله – ووصفه فاذا استغرق فى شهود المعروف فنى عن صفة نفسه وفعلها ، ولما كانت – المعرفة فوق العلم وكانت أخص منه كان فناء المعرفة فى المعروف مستلزما لفناء العلم – فى المعرفة ، فيفنى اولا ثم تفنى معرفته فى المعروف

(والثانى) هو فناء العيان فى المعاين ، فالعيان فوق المعرفة ، لان المعرفة فوق العلم ودون العيان ، فاذا انتقل من المعرفة الى العيان فنى عيانه فى معاينته كما فنيت معرفته فى معروفه

(والثالث) فناء الطلب فى الوجود فهو الا يبقى لصاحب هذا الفناء طلب لانه ظهر بالمطلوب المشاهد وصار واجدا بعد ان كان طالبا وكان ادراكه اولا علما ثم قوى فصار معرفة ثم قوى فصار عيانا ثم تمكن فصار وجودا

وقد ميز الصوفية كيفية المعرفة كذلك الى ثلاثة درجات (١) معرفة القلب (٢) معرفة الروح (٣) معرفة السر

والحب

والحب عند الصوفية هو واسطة الاسباب وهو علة العلل ، فلا تجد شيئا قام عندهم الا على الحب . فاذا كان الصوفى قد استطاع ان يهجر لذائذ الدنيا وقيودها فهو لا يستطيع أن يتحرر من قيود الحب . بل الحب معبوده الاول ، اياه يناجى وله يدعو ، وما كانت الآيات الصوفية لو تبيناها ، ودعوات الصوفية الخاصة فى مقاماتهم لو أمعنا فيها ، الا نشيدا فجر معانيه الحب ونضد آياته الشوق والوجد ، فاذا حديثهم كله هوى واذا العالم فى نظرهم بين محب ومحبوب ، وفى المحبة يقول بعضهم – المحبة سكر لا يصحو صاحبه الا بمشاهدة محبوبه

ويقول الآخر – المحبة استهلاك فى لذة ، والمعرفة شهود فى حيرة وفناء فى هيبة ولقد صدح بهذه النغمات الكثير من الصوفية ولو أنها فى شىء من التفاوت وفى عبارات تتقارب أحيانا وتغمض عن الأخرى أحيانا ألا انها كلها تشير الى معنى واحد ، وكلها صادرة من غلبة وجد هاج وتغلب على الفؤاد ، فأدى الى الفناء فى الحب قال قائلهم

صداحة الا يك ما أشجاك أشجانا   نوحى بشكواك أو نوحى بشكوانا

وفى محبة الله يقول فى التعريف بها ، حقيقة المحبة قيامك مع محبوبك بخلع أوصافك والاتصاف باوصافه ، فاذا استولى الحق على قلب عبد أخلاه عن غيره واذا لازم أحدا أفناه عمن سواه

والمحبة - فيما يقول الغزالى - طبيعة مشتركة كمحبة الجائع للطعام ، والظمآن للماء ، ومحبة اشفاق كمحبة الوالد لولده ، ومحبة أنس والفة كمحبة المشتركين فى صناعة واحدة أو علم واحد ، أو مرافقه أو تجارة

وكلها تستلزم التعظيم والايثار فى وجودها فى الانسان مع محبة الله

ولقد كان رسول الله ﷺ يحب الحلوى والعسل ، ويحب الطيب والنساء ، وكانت عائشة أحبهن اليه ، وكان يحب أصحابه والصديق أحبهم اليه

اما المحبة التى لا تصح الا لله فهى محبة العبودية المستلزمة للذل والخضوع والتعظيم كما قال الله تعالى (والذين آمنوا أشد حبا لله)

وهذه بعض الامثلة ففيما يروى عن مالك بن دينار أنه قال - حبس عنا المطر حتى هلك الزرع وأخذنا الظمأ فاستقينا مرارا فلم نسق ، فانصرف الناس وبقيت فى المصلى أدعوا الله . فلما أظلم الليل اذا أنا برجل أسود دقيق الساقين عظيم البطن ، فصلى ثم رفع رأسه الى السماء فقال - سيدى الى كم ترد عبادك فيما لا ينقصك . أنفد ماعندك . أقسمت عليك بحبك لى الا سقيتنا الساعة . فما أتم كلامه حتى أمطرت الدنيا كافواه القرب فتعرضت له فقلت أما تستحى تقول بحبك لى ، وما يدريك أنه يحبك قال - يامن اشتغل عنه بنفسه اين كنت أنا حين خصنى بتوحيده (تراه بدأنى بذلك الا لمحبته لى . الا تعلم أن الله واسع المغفرة . عظيم المحبة لعباده . ألم تسمع قوله تعالى (هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات الى النور . وكان بالمؤمنين رحيما) تدبر أيها الانسان ان الله وملائكته يصلى علينا . لتعلم اى حب عند الله لنا (ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين) ويحب العابدين ويحب أن تعرف أنه يحبنا .

وهذا أبو يزيد البسطالى يقول « لله عباد لو حجبهم فى الجنة عن رؤيته لأستغاثوا منها كما يستغيث أهل النار من النار » ويقول الناس يفرون من الحساب وأنا أتمناه لعله يقول لى ياعبدى فاقول لبيك ثم بعد ذلك يفعل بى مايشاء » ويقول « رفعنى الحق فاقامنى

بين يديه وقال لى يا أبا يزيد أن خلق يحبون أن يروك فقلت زينى بوحدانيتك والبسنى أنانيتك وارفعنى الى احديتك حتى اذا رآنى خلقك قالوا رأيناك . فتكون انت ذاك ولا أكون أنا هناك ، وقيل سمع أبو يزيد رجل يكبر فقال له ما معنى الله أكبر . قال أكبر من كل شيء . قال ليس معه شيء فيكون أكبر منه . قال الرجل فما معناه . قال الله أكبر من أن يقاس بالناس أو يدخل تحت القياس أو تدركه الحواس

والحب عاطفة ووجدان ولا يستقيم الا بحال وذوق ، وعوامله واسبابه تنبعث من القلب وقد لا يدرك العقل حدودها ومداها حتى أنه طالما ظلت هذه العوامل عسيرة الحل على الاسباب نفسها . فاذا كان هذا من الحب بالنسبة الى المخلوقين فما بالك بحب من ليس كمثله شيء . وهذه رابعة العدوية تأثرت بمقام الحب فكانت تقول

انى جعلتك فى الفؤاد محدثى وابحت جسمى من أراد جلوسى
فالجسم منى للجليس مؤانسى وجعلت حبك فى الفؤاد انيسى

ولما تطور بها مقام الحب كانت تحب الله لذاته ولذات الحب غير ناظرة الى مغنم من ورائه وكانت تقول

أحبك حبين حب الهوى وحب لأنك أهل لذاكا
فاما الذى هو حب الهوى فشغلى بذكرك عمن سواكا
وأما الذى أنت أهل له فكشفك لى الحجب حتى أراكا
فلا الحمد فى ذا وذاك لى ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

بهذا الحب الصوفى يكتمل التحقق الموحد والنماء للشخصية ، وذلك بواسطة نذر الانسان نفسه (لله) وبهذا الأصطفاء الذى تهبها قوى النفس حريتها النهائية فتجعلنا تشق نطاق العالم المكانى والزمانى كيما نستشعر ونتذوق حضرة موحدة خصوصا حينما يستحيل العشق الى عشق الله . . . أضف الى ذلك حينما يكون العشق دينيا يهدف الى غاية مفروض انها عالية على الكون ، وفى ذلك كان الحلاج يقول

كانت لنفسى أهواء مفرقة فاستجمعت مذ رأتك العين أهوائى

فاذا بحثنا القانون الكلى للعالم واخذنا العالم جملة ، لا يعترينا شك فى أن أسباب هذه الاختلافات والبيئة المشاهدة التى تبقى هذه الاختلافات أو تزيلها يرتبط بعضها ببعض

ولا يمكن ربط الأسباب المؤثرة فى هذه الدوائر الكبيرة بعضها ببعض الا من وجهة النظر العامة الشاملة للعالم كله. فالحياة كلها حب والوجود كله يعمل بين محب ومحبوب فاذا اعتبرنا هذه الحقيقة لزمنا معرفتها .

وهذا ابن الفارض يقول فى وصف استحضار محبوبه

تراه ان غاب عنى كل جارحة فى كل معنى لطيف رائق بهج
لم أدر ماغربة الأوطان وهو معى وخاطرى اين كنا غير منزعج

ويقول وهو يسعى لتفريغ قلبه من وجوده الذاتى ، ويقصر خطراته النفسية على الشغل بمحبوبه عساه يظفر منه بخلوة روحية

جرى حبها مجرى دمى فى مفاصلى فاصبح لى عن كل شغل بها شغل
ونأنس ببذل النفس فيها أخا الهوى فان قبلتها منك ياحبذا البذل
فمن لم يجد فى حب (نعم) بنفسه ولو جاد بالدنيا اليه انتهى البخل
ولولا مراعاة الصيانة غيرة ولو كثروا أهل الصيانة أو قلوا
فقلت لعشاق الملاحة اقبلوا اليها على رأيى وعن غيرها ولوا
وان ذكرت يوما فخروا لذكرها سجودا وان لاحت الى وجهها حلوا
وفى حبها بعت السعادة بالشقا ضلالا وعقلى عن هداى به عقل

وهذا ابن عربى يقول ـ مافى الموجودات الا محب ، فالعالم كله محب ومحبوب ، وما أحب أحد غير خالقه ولكن احتجب بحجب ، زينب ، وسعاد ، وهند ، وليلى ، والدنيا والدرهم والجاه . وكل محبوب فى العالم . فان الحب سببه الجمال وهوله، لان الجمال محبوب لذاته والله جميل يحب الجمال، فيحب نفسه، وسببه الآخر الأحسان وماثم احسان الا من الله فان أحببت الاحسان فما أحببت الا الله ، فانه المحسن ، وان أحببت الجمال فما أحببت الا الله . فانه الجميل .

وانما أخرج الله العالم ليكون مرآته يرى فيه نفسه فما أحب الا نفسه . هذه الأفكار ملكت قلب ابن عربى وتطورت به حتى أضحى يحب الأنسانية جمعاء لأنها أشرف أنواع المخلوقات التى أودع فيها العقل والمعرفة ، والمخلوقات صنعة الله والمرآة التى يرى فيها نفسه كما تقدم فى أقواله ولماظهرت منه هذه البوادر وقال أنه يحب الأنسانية جميعها

كتابخانه تخصصى تاريخ اسلام وايران

بصرف النظر عن اختلاف أديانها قال خصومه أنه يقول بوحدة الأديان وفى هذا ما يخالف الدين ، واعتقد أنه لا يقصد الا العطف والرحمة بالانسانية بلا تفرقة بين الدين والجنس واللون والدم . أذ لو كان قصد القول بوحدة الأديان لما كان يتمسك بقواعد الأسلام ويؤدى العبادات ويجادل بالقرآن والحديث ويؤمن بالأحكام ويحث على العمل بها ، أما أنه كان يؤديها ليعيش بين الناس فذلك مالم يفعله مثله من أصحاب الأفكار الحرة ، وكان باستطاعته أن يعيش بالممالك الصليبيه التى كانت فى قلب البلاد الأسلامية حالة أهنأ وأسعد . لقد كان عصره عصر حروب وكروب وتخريب وتدمير واهلاك للبشرية بسبب الأختلافات الدينية والمذهبية ، ولم تجن الانسانية من وراء ذلك الا الويلات والفناء ، وكان مشفقا عليها من هذه الحالة ، وها نحن اليوم وبعد سبعة قرون وأكثر ننادى على اختلاف أدياننا وأجناسنا وألواننا بالعطف والرحمة بالانسانية ونعد العمل بهذه الأفكار عملا انسانيا اجتماعيا قوامه الأخلاص التام ومحبة الانسانية وهى من وحى السماء ، فاذا أصيب بعض القوم بكوارث من الجوع والعرى والتشريد . قام الناس على أختلاف أديانهم بتقديم المساعدات المادية التى تخفف عنهم الويلات والآلام ، وتحركت قلوب العالمين لآداء هذا الواجب الانسانى . أرأيت أيها القارىء فى بطون التاريخ لمثل هذه الأعمال والأفكار فى العصر الذى كان يعيش ابن عربى فتش التاريخ فلن تجد شيئا مذكورا . ولكن اليوم ترد الأعانات والغوث من جميع بقاع العالم على اختلاف أديانه الى المكروبين والمنكودين . أتكون هذه اليوم خلاصة الأفكار الانسانية وغاية الأيمان بالعطف والرحمة بها ، وتكون فيما مضى عقيدة ملحدة كافرة لا تؤمن بتوحيد الله ورسله واليوم الآخر ؟ ماذا قال ابن عربى فى هذا الموضوع منذ أكثر من سبعة قرون ؟ قال وهو مشفق على الانسانية المعذبة من جراء الحروب الدينية .

لقد صار قلبى قابلا كل صورة فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب انى توجهت ركائبه فالحب دينى وايمانى

لقد كان يرى الرحمة فوق العدل . ولقد نشأت عنده هذه الفكرة من تغاليه فى

نظريته فى المحبة ، والمحبة يذهب اليها كثير من العلماء غير الصوفية ، حتى أن ابن القيم خصم الصوفية وخصم ابن عربى وأمثاله ، يذهب مذهبا فى المحبة ويحاول حل مشكلة التوفيق بين الارادة الالهية والارادة الانسانية فيقول فى كتابه (طريق الهجرتين) ما ملخصه . ـــ خلق الله العالم ، وأحب من خلقه عبادته التى هى كمال المحبة ، فالله يحب نفسه أعظم محبة ، ويحب من يحبه ، وهناك عقد آلهى بين الله وعباده وسبيله المحبة ، ومحبة الله من أقوى الأسباب فى الصبر على مخالفته ومعصيته . فان المحب لمن يحب مطيع وكلما قوى سلطان المحبة فى القلب كان اقتضاؤه الطاعة وترك المخالفة ، وانما تصدر المعصية والمخالفة من ضعف سلطانها ، والمحبة تقتضى ايثار المحبوب فى ارادته بان يبقى مراده من مراد محبوبه .

فهو لم ينكر ما للمحبة من الأثر والتأثير ، وان كان لا يرى الأسترسال مع العاطفة الوجدانية التى هى من العوامل النفسية الفعالة ، وهذه العاطفة وهذه العوامل هى التى ساقت الصوفية الى حالات الوجد فسكروا بها حتى انساق بعضهم الى الشطح لغلبة الغليان والأحتراق بنار العشق ، والصوفية أنفسهم يقولون ان لهم حالتين

(١) حالة الصحو وفيها ينطقون بالشريعة ولا يحيدون عنها

(٢) وحالة المحو أو السكر أو الغيبوبة وهم فيها يعبرون عن الوجدانيات المكبوتة فى حالة الصحو وهى التى يعرفونها ، بالحقيقة ، تأتى عفوا من غير قصد منهم وقد تصدر منهم شطحيات ينكرونها على أنفسهم بعد أن يردون الى حالة الصحو . فامثال هؤلاء الصوفيه هم عباد الرحمن الذين سموا بدينهم وارتقوا بحياتهم الى نور ربهم ، فعاشت أرواحهم حول العرش ونهلت من رحيق الحب ، وتغذت بثمار المعرفة . فاشرقت فى قلوبهم فيوض رحمته وأسرار حكمته ، فشفوا ووفوا حتى خضعت عادتهم لروحانيتهم ، فخرجوا من مقاييس الزمان والمكان الى قدس أسرار الأيمان وهم قوم قد غمرهم النور الآلهى فتعلقت أبصارهم بالله فافناهم عن كل ماسواه . فما رأوا فى الوجود سواه وتعلقت قلوبهم به فما يتلذذون بالجنة الا اذا تنعموا برؤيته سبحانه .

وقد فهموا الألوهية على أنها استفراق كامل للوجود باسره وعلى أنها تنزيه مطلق رفيع . فهو توحيد من لون جديد .

هذا اللون الجديدهو الذىقال فيه من لم يتذوق طعمه وفهمه هو (وحدة الوجود) وهوالذى قال فيه خصوم الصوفية أنهم أخذوه عن اعتقادهم مقالات الفلاسفة الملحدين القائلين بالحلول والاتحاد

ولم يتبين خصوم الصوفية الفروق الجوهرية الموجودة بين مذهب الفلاسفة ومذهب الصوفيه فيه .

يتفق المسلم العادى ويتفق الصوفى على ان الله واحد

والأول يعنى بذلك انه واحد فى ماهيته وصفاته

والثانى يرى ان الله هوالواحد الحقيق الذى لا يوجد غيره فى الكون . فهو يتضمن كل الظواهر الأخرى .

والصوفى يريد أن يعرف الله ويعرف كل أسرار الوجود فى نفسه ، فهو يعد نفسه عالما صغيرا ، فيشعر من ذلك بشبه اتحاد

قال بعض مؤرخو التصوف أن مؤسس مذهب (وحدة الوجود) فى التصوف هو ابن عربى وهو الذى نظم أبوابه ووضع له القواعد

ولكن ابن عربى لم يكن أول من تكلم فى هذا الباب فان أبا مدين التلمسانى تكلم فى ذلك من قبل شعراً فقال

الله قل وذر الوجود وما حوى ... ان كنت مرتادا بلوغ كمال
فالكل دون الله ان حققته ... عدم على التفصيل والاجمال
من لا وجود لذاته فى ذاته ... فوجوده لولاه عين محال
والعارفون فنوا به لم يشهدوا ... شيئا سوى المتكبر المتعالى
ورأوا سواه على الحقيقة هالكا ... فى الحال والماضى والاستقبال

وكان الغزالى يتكلم فى ذلك بشكل آخر هو عنده علم (الحقيقة) واشار الى ذلك فقال العارفون بعد العروج فى سماء الحقيقة اتفقوا على أنهم لم يروا فى الوجود الا الواحد الحق ، واستهوت عقولهم الفردية فصاروا كالمبهوتين فيه ، ولم يبق فيهم متسع لذكر غير الله ، ولا اذكر أنفسهم أيضا فسكروا سكرا وقع دونه سلطان عقولهم . فقال بعضهم (أنا الحق) وقال الآخر (سبحانى) وقال غيرهما (مافى الجبة الا الله) فلما خف

عنهم سكرهم وردوا الى سلطان العقل عرفوا أن ذلك لم يكن حقيقة الأتحاد بل شبه الأتحاد

أما الذى لاشك فيه ان ابن عربى أقحم التصوف بمذهبه فاصبح لا يعنى بالتصوف الا (وحدة الوجود) وله فى هذا العصر نظير يتفق معه تماما . فقد أعلن شاعر العراق الكبير معروف الرصافى رحمه الله فى كتاب (رسائل التعليقات (١) وهو من الذين يؤثرون القول « بوحدة الوجود » ويدافعون عن مذهبها فيقول

واذا قلنا الصوفية فلا نعنى بهم أهل الخانقاه والتكية ، ولا هؤلاء الدراويش من لابسى الصوف والمرقعات ، ولا هؤلاء المشعوذين من حاملى الدبابيس وضاربى الدفوف وناطحى الجدران بالرؤوس . وانما نعنى بهم رجالا من المسلمين أولى الأفكار الحرة والنفوس الزكية الطاهرة القائلين « بوحدة الوجود » ثم يتحمس للمذهب فيقول

ليس حديثى هذا بالمرجم ولا اعتقادى بالمتوهم . فقد أصبح لى كالشمس فى وأد الضحى ، أن محمداً ﷺ . جاء بحقيقتين ناصعتين احداهما « وحدة الاله » والثانية « وحدة الوجود » ـ أما الأولى ـ فقد قالها بمنطوق العبارة ـ وأما الثانية ـ فقد قالها بمفهوم العبارة لكى يصل اليها أولى المواهب الفطرية العالية الى الكمال النفسى الذى لا يتم الا بمعرفة « لاموجود الا الله »

وحدة الوجود

وحدة الوجود الفلسفية ـ معناها أن الحقيقة الوجودية واحدة . فالكثرة ومظاهر الكون هى كل ماله حقيقة وكل ماله وجود . فالخالق والمخلوق شىء واحد بلا تمييز ماهو طبيعى بما هو الهى . فهى تحصر الوجود فيما يتناوله الحس وتقع عليه العين . وتعتبر الله اسما على غير مسمى حقيقى . (٢)

أما وحدة الوجود التى رآها الصوفية ـ فمعناها ان الحقيقة الوجودية واحدة فى جوهرها وذاتها متكثرة بصفاتها وأسمائها لاتعدد فيها الا بالأعتبارات والنسب والأضافات وليس للعالم وجود الا كوجود الظلال فى الأنهار ، وكصور المرايا بالنسبة للمرئيات . فالعالم كله ليس الا خيالا أو حلما وجب تأويله وفهمه على حقيقته (٣) ويقول شاعرهم

---

(١) صفحة ١٦ (٢) ابو العلا عفيفى (٣) ابو العلا عفيفى

كل مافى الكون وهم أو خيال أو عكوس فى المرايا أو ظلال
لاح فى ظل السوى شمس الضحى لاتكن ياصاح فى تيه الضلال

ومعنى هذا . ان الوجود المطلق لله . لأنه واجب الوجود فى ذاته . والموجودات ظل له لا وجود لها فى ذاتها . والرحمة الآلهية هى التى منحت الوجود للموجودات . فالله هو الغنى وكل الموجودات مفتقرة اليه

التعدد والكثرة لاتوجب تعدداً فى ذات الوجود كما ان تعدد الانسان لايوجب تعدداً فى ذات الانسان فالواجب وجود محض والتعين عدم محض

تعالى الله عن همم الرجال وعن وصف التفرق والوصال
اذا ماجل شيء عن خيال يجل عن الاحاطة والمثال

فليس قول الصوفية أن الله فى كل شيء أنهم يقصدون بذلك ان الله بكل الأمكنه او يقع تحت الأزمنة أو يتلبس بشيء فى العالم

وقد ظن خصوم الصوفية فيهم أنهم قصدوا هذا المعنى ونقدوهم نقدا مرا بل كفروهم وما كان خصوم التصوف لذاته وحدهم هم دعامة هذا النقد بل كان كثيرون من الفقهاء والمتكلمين والمتفلسفين يهاجمون هذا القول لأنه يدل على الحلول والاتحاد وعلى القول بقدم العالم . وحقيقة لوكان الله محمولا فى غيره لوسعته الأمكنة ولوقع تحت الأزمنة ولكان فى استحالة دائمة ، ولكان تارة شخصا وتارة نوعا وتارة جنسا وتارة فصلا ولكان العالم قديما ولبطلت دلائل الحدوث وشبه ذلك محال . والصوفية لايقرون مثل هذا الزعم بل رأوا الله متعاليا عن الزمان والمكان منزها عن الشبيه والمثيل والند والضد ويعلمون أن نسبة الزمان والمكان اليه نسبة واحدة . فالوحدة التى رأوها تدرك ولا تحس ، وتدرك دون أن تحل فى شيء أو أن تتحد بشيء . فاذا كان الحلول والاتحاد لا يعقلان ولا يجوزان ولا يحتملان أن يقعا فى حق أى مؤلف أو مخترع أو صانع من البشر (أى حلوله واتحاده بصنعته) فهما فى حق الله أولى وأجدر

ومن أمثلتهم على وجود الكثرة فى الوحدة أو الوحدة فى الكثرة قولهم -
اذا انطبعت صورة جزئيه واحدة فى مرايا متكثرة مختلفه بالكبر والصغر والطول والقصر والاستواء والتقعير والتحديب وغير ذلك من الأختلافات . فلا شك أنها

تكثرت بسبب هذه الصورة الجزئيه الواحدة . والظهور فى كل واحدة من المرايا غير مانع أن تظهر بحسب سائرها . فالواحد سبحانه ولله المثل الأعلى بمنزلة الصورة الواحدة والماهيات بمنزلة المرايا المتكثرة المختلفة باستعدادها . فهو سبحانه يظهر فى كل عين بحسبها من غير تكثر وتغير ذاته المقدسة ، ومن غير أن يمنعه الظهور باحكام بعضها عن الظهور باحكام سائرها .

وما الوجه الا واحد غير انه   اذا أنت عددت المرايا تعددا

ولقد أجمع العارفون بالله - على أن البارى تعالى مباين للعالم فى جميع الجهات . لا يشبهه شىء ولا يشبه شيئا . وأن هذه المباينه لا تقتضى تحيزا بمكان ولا تقتضى انفصالا فوجوده فى كل شىء لا يقتضى ممازجه واتصالا ، وهذه صفه جليه وصفيه لا تحيط بها العقول وانما تدرك بما تدل عليه الدلائل كسائر صفات الله التى تثبت ولا تكيف (١)

وثم حالتان - لا يكاد خصوم الصوفيه يفرقون بينهما وكثير من العلماء أيضا هما (وحدة الوجود) و (وحدة الشهود)

أما الأولى فقد بيناها - أما (وحدة الشهود) فهى الحالة النفسيه التى يشعر فيها الصوفى حينما يفنى عن نفسه وعن كل موجود فلا يرى سوى الله فى وجوده وفى جميع المشاهد الأخرى ، فان مقام الحب لا يدع صاحبه ينظر الى نفسه ووجوده ولا يدعه ينظر الى العالم الخارجى بل يصبح الكون كله فى نظرة عامرا بوحدة محبوبه (٢)

ذكر الفرغانى - أن الوجود كله صادر عن صفه الوحدانيه التى هى مظهر الأحديه وهما معا صادران عن الذات الكريمه التى هى عين الوحدة ليس غير ويسمى الصوفيه هذا الصدور (بالتجلى)

ويرى السهروردى المقتول - ان العالم الروحانى صادر عن الملأ النورانى الأقدس وهذا العالم النورانى مقابل لعالم الظلمه الذى هو عالم المادة

ويرى اخرون من الصوفية - أن الوجود له قوى فى تفاصيله وبهذه القوى كانت الموجودات وموادها كليه وجزئيه وأحاطتها بها من كل وجه هى « وحدة الوجود »

وقد اتفق المتصوفون والمتكلمون - على ان الخالق له التأثير فى الموجودات ، ولكن بعض الصوفيه أضاف الى ذلك ان الخالق عين المخلوق والعلة فى ذلك قولهم فى الصفات

---

(١) الحدائق للبطليوسى (٢) الدكتور ابو ريده

فالصفات عند الفلاسفة هي عين الذات بمعنى انهما متحدان حقيقة واحدة

وعند المعتزلة الذات عين الصفات

وعند الاشاعرة الصفات زائدة على الذات ولكن الله عالم بعلم قادر بقدره فالصفات قديمة

وعند الصوفية الصفات عين الذات بحسب الوجود وغيرها بحسب العقل

والصوفيه : يرون أنه يمكن النظر الى الذات الالهيه من وجهين

« الاول » من حيث هي ذات بسيطة مجردة من النسب والاضافات أو الموجودات الخارجية .

« والثانى » من حيث هي ذات متصفة بصفات

وهي من الوجه الاول منزهة عن صفات المحدثات وعن كل ما يحيطها بالوجود الظاهر بل منزهة عن المعرفة لا يمكن تصورها ولا التعبير عن وصفها ووجود الذات فى هذا الوجه وجود مطلق

وفى الوجه الثانى مقيد : أو وجود نسبي فهو لا يعرف من غير النظر فى العالم فوجود الحق متعين فى صور اعيان الممكنات أو فى النسب والاضافات المعبر عنها بالصفات ، ومن هنا كانت الموجودات كلها صفات للحق (فالحق عين الخلق) أو عين الصفات الظاهرة فى مجالى الوجود ، وهى ليست شيئا زائدا على الذات بل هى نسب واضافات . وهذا قول المعتزله فى أن الصفات عين الذات ، وعلم الحق بذاته هو علمه بكل شيء فى الوجود سواء ما كان بالقوة ، وما كان بالفعل ، ولكن الحق يميز الأشياء عن نفسه من حيث هى موضوعات لعلمه ، وهذا لا يتعارض مع وحدة « العلم والعالم والمعلوم » وهو تمييز لا بد منه فى طبيعة الوجود المعروف (١)

والصوفية يفرقون بين المادة والروح ؛ ويفرقون بين العالم وبين الله ولكنهم يقولون ان العالم الظاهر لا وجود له حقا وان الوجود الحق لله ، وان الوجود متصل اتصالا بالله ، اتصالا يجعل ادراكه بغير الله متعذرا ؛ ولا فرق بين الواحد والكثير عند بعضهم الا باعتبار النظر العقلى ، فهو يدرك الكثرة فى الوحدة والوحدة فى الكثرة بطريق الكشف والذوق لا بطريق الحس والعقل

(١) الدكتور عبد الوهاب عزام بك (التصوف وفريد الدين العطار)

والصوفية يشاركون المعتزلة والاشاعرة فى الاختيار عندما يكون للسالك كسب وهى اول مراحل الطريق . فاذا وصل مرتبة الفناء فى الله تخلص العبد من الكسب وصارت افعاله كلها لله . فالجبر عندهم مسألة نظرية لانهم دائما يحثون على العمل ويوصون به ولم يترك أحدهم العمل احتقارا

والمعتزلة يرون أن عدل الله يوجب عليه ان يثاب العامل على عمله

والاشاعره يقولون بعدم ايجاب شيء على الله

والصوفيه يقولون برأى الاشاعره ، ولكنهم لا يألون جهدا عن العمل والحث عليه ولكن العمل لا يغنى فتيلا فهم يرجعون الأمر كله لله ورحمته وفضله . فرب خطرة أو عمل صغير يكون عند الله كبيرا فينقل العبد به من الشمال الى اليمين ثم يقيم على الصراط المستقيم

وختام المسألة

ان جميع من فكروا فى الألوهية والفلاسفة والصوفية ، قالوا ان الوجود وليد تدبير حكيم واحد متصف بالكمال والتنزيه ، واجمعوا على ان هذا الوجود وليد الحب ، وكشفوا ان هناك قوة كامنة فى النفس مغايرة للجسم مغايرة للروح تربط العقل بالحقيقة ليست من عندنا بل هى هابطة من فيض الوجود المطلق ، فكثيرا مانشعر ولا نفهم موقفنا من هذا الاحساس ، فنفهم انه دليل الحياة ، كما اننا نبصر ولا ندرك الضوء الذى يهدينا ويوصل الينا العلم فتميز به افكارنا وارواحنا الاشياء واحيانا نتحرك حركة آلية قبل أن نعلم مبعث هذه الحركة وتستمر غامضة علينا عند تفسيرها ، واخيرا نجزم انها فوق الشعور وفوق اللاشعور . فالقضية الكبرى هى قضية الأنسانية وهى قضية الوجود والروحية بل هى قضية الحياة الكلية

وخلاصة الموضوع : ان « وحدة الوجود الصوفية » مذهب روحى مؤمن ، يجل الالوهية فى الوجود ويجعلها المحل الأول ويعتبر « الله » الحقيقة الأزلية والوجود المطلق بخلاف ذلك المذهب الفلسفى الذى يجعل الله اسما على غير مسمى حقيقى ولا يفرق بين المادة والروح ولا بين ماهو طبيعى وبين ماهو آلهى ويجعل الخالق والمخلوق شيئا واحدا فكل تشابه بين المذهبين ماهو الا تشابه ظاهرى شكلى وليس حقيقى ، الا ان الصوفية حين يصورون حالهم وأفكارهم لا يمكنهم أن يصوروها الا بخيال اقرب الى المحسوس لأن لغة القلوب بعيدة عن أدراك المحسوس

هـذه المقدمات

وهذه المقدمات تلقى الضوء على كثير مما أشكل فى مواضيع التصوف وتنير السبيل الى موضوع شرح القصيدتين « وحدة الوجود والانسان الكامل » وقد يجد القارىء بعض التكرار فى الافكار وربما فى نفس الجمل ، لانى كنت وضعت الشرح قبل المقدمات ثم آثرت الا اغير منه شيئا ، وجعلته ممزوجا بالاصل . فلم اشأ أن أتكلم فى اللغة أو فى العروض أو فى فنون العربية الاخرى كما جرت عادة الشراح ؛ ولكن قصدت الابانة عن الاهداف التى نشأت عنها الافكار الدافعة الى نظم القصيدتين - ومع كل ذلك فستظل بعض الجوانب غامضة وهذا شأن الصوفية ، فعندما لاتساعدهم اللغة أو عندما لاتساعدهم ظروفهم بالتصريح ؛ يعمدون الى الرمز والاشارة . ارتكانا على الذوق فى تفهم الحقائق . أما سلامة الذوق فلا تتحقق من غير ممارسة وعمل فى طريق القوم بما شرطوه وحددوه فى منهاج السلوك . ولكل هذه الاسباب كان فهم افكار الصوفية واحوالهم ومرامى أهدافهم عسيرا وغامضا على كل من لم يلتمس من التصوف مشربا

شرح قصيدة (وحدة الوجود)

(هند) أنت المنى وأنت المنايا ؟ نعمة أنت أم جماع البلايا ؟

أما (هند) فى هذه القصيدة فهى رمز الوحدة ، وهى المحبوبة المعنية بها ، الوحدة السارية فى الموجودات ؛ والهوية الفعالة التى قامت بها المحدثات ، ولها التحيات المباركات فى الصلوات واليها المناجاة والتوسلات . وهى كعبة الاشواق التى يهوى اليها الفؤاد بالحنين . فان لم يجدها المحب فى قلبه لجأ الى الأنين فلا يهجع حتى يعمر قلبه بانوار القرب وتتذوق نفسه لذة الوصل ، وليست « هند » هى المشهور من اسمها شخصية ذات عين أو صورة لها ظهور مادى أى محبوبة حسية ، انما هى رموز معنوية يلجأ اليها الشعر للتصوير والخيال .

كل انسان له فكر ، وان أول مايفكر الانسان اذ يفكر - يفكر فى نفسه قبل كل شىء ، فيفكر فى وجوده ويفكر فى حياته ، ويفكر فى نشأته ؛ ويفكر فى مصيره وهو

فى خلال كل هذا التفكير يفكر فى صلته بخالقه ، ثم يرى أمامه الموجودات المتصلة به فيفكر فى مبلغ هذه الصلة أيضا ثم يفكر فى الامور المقومة لحياته وفى مادته كما يتأمل فى نهايته .

فاذا تأمل بعين البصيرة رأى أنه مقرون بالقطار الخالد الذى يسير به ، ولا يعلم متى وأين يقف هذا القطار . وان سجل سير القطار خط فى الأزل الذى لا يعلم ماذا خط فيه . فهو فى حيرة بين الرجاء وبين الخوف . يعمر قلبه نور الرجاء والأمل فينشرح صدره ، وتظلم فى وجهه الدنيا وتضيق ، فينقبض صدره بعوامل الخوف والملل . فهو بين تيارين متضادين وهو عند بسمات المنى عندما يقوى الرجاء يتهلل بشرا بفيض الجمال . كما انه مشفق على نفسه خائفا يترقب النوازل والمنايا فزعا جزعا وجلا من جبروت الجلال . ينادى محبوبه استعطافا واسترحاما يقول

(هند) أنت المنى وأنت المنايا ؟ نعمة أنت أم جماع البلايا ؟

ثم لا يلبث أن يغلب رحمة محبوبه به ، فان الحب قوامه الرحمة ، والرحمة وسعت كل شيء ، فلا سبيل الى الخوف . سيما أنها منبع الفيض ومصدر الحب الذى أخذ عليه المشاعر واستلفت أنظاره وأفكاره للجمال الذى كان من المحبوب أولا ، فافاض المحبوب على المحب وجودا من وجوده . تبسم الثغر الوضيء المضيء وظهر نوره وبدت كلمة من المحبوب أشرق أثرها الوجود وانبثق . وأشرقت الروح من بين لمة الشفتين المملوءتين بالرحمة النضاختين بالحب الموسومتين بالخير والجمال والطهر والصفاء ، ولا تسل متى وكيف كان هذا الاشراق والانبثاق اذا تحققت أن الفاعلية مستسرة عند هذه الكلمة . لانها مستترة . وهى تعمل عملها خلف أستار الاكوان بعيدة عن الظنون والاوهام خافية عن الكيف والفكر ، بالرغم من ظهور فاعليتها كظهور الشمس فى رابعة النهار وهى تستوعب الزمان والمكان فلا تقاس بسير الفلك ، ولا تدرك بخاطر ملك وهى سر الحياة . لهذا كله يتسع أمام المحب الامل برحمة المحبوب وحبه له فيرضى عنه ، ويأمل أيضا أن يرضى هو عليه . فيذكره بما كان منه له فيقول (لهند)

تبسمى فى الخفا فتشرق روحى من وميض اللما وبرق الثنايا

فاذا كان هذا مبلغ استشعارنا وتصوراتنا لهذا الاشراق البعيد عن الحس . المدرك بالذوق وان هـذه الحقيقة فى سموها غيبية غائبة وهو ادراك قلبى ، فنحن وميض من منبع الأنوار القدسية الحقية التى هى صفة للذات الصمدانية ، وأن هذا النور غير المرئى بالأبصار . كان سر هذه الحقيقة وهو الأشماع المطلق ؛ أو البرزخ بين عالم الوجود وعالم الامكان . فالفكر فى اطلاقه ، والمادة فى اطلاقها حقيقة متحدة كنشاطين متقابلين لحقيقة واحدة ، وهى العلة المحتجبة خلف الأستار ، وأن نشاط الصفات هى الخصائص الآلهية الصادرة من الذات . لذلك كانت تصوراتنا الدهشة والذهول . وما أن تصورنا هذا المقام ألا

وتذوب القلوب شوقا ووجدا بحلول الصفا وصقل المرايا

واذا تأملنا بعين البصيرة ليس فى أنفسنا فحسب ، بل فى جميع الموجودات التى تظهر لنا والتى تغيب عنا ونؤمن بها ؛ لوجدنا أن هـذا الاشراق هو الانبثاق الذى صارت به جميع العوالم والأكوان فى حيز الظهور والوجود . فالقوة التى تحركنا ؛ والقوة الكامنة فينا هى بعينها القوة التى تحرك الموجودات وهى القوة الكامنة فيها وهى القوة التى تعنى بالموجودات كما تعنى بنا ، ولولا وحدة هذه الذات المهيمنة المعنية بوحدة الموجودات لاستحالت وحدة هذه الموجودات ولكان لكل موجود قوة خاصة به واصبحت هناك المنافسة بين هذه القوى المختلفة ؛ ولكن الواقع يؤيد ان العوالم كائنة فى وحدة شاملة وان الموجودات موصولة السرائر بعضها ببعض . وكلها مربوطة بوحدة الذات . فانظروا رحمكم الله الى أنفسكم والى الموجودات فانتم

مظهر لاح فى رواء ومجلى وغناء ولذة ومزايا
مشهد يجذب الخلى بهاءا وبهاء مطلسم بالخفايا
يسحر اللب والفؤاد ويلهو باسود الثرى فتمسى سبايا

أما ان الوجود بأسره وحدة شاملة ذات نظام ثابت وترتيب فائق (لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون) فامر واضح الظهور ومشاهد فى رق منشور . وكذلك أدركه فى نفسى فأنا موصول السرائر بالعالم .

أقابل بظاهرى الطبيعى الظواهر الطبيعية ؛ وأقابل بروحى وبقلبى الباطن الروحانى . فهيكلى صلصال من حمإ مسنون وروحى قبس لدنى من شعاع ذلك النور . فانا ذو صفتين متضادتين ووجهين متقابلين ولا تتحقق لى صفة الوجود ولا لأى موجود الا بظهور الوجود ألحق فيه . فليس لشىء وجود على الحقيقة والوجود الحق هو للحقيقة المطلقة وليس للمخيلة ، ولا للفكر ، ولا تقدر العقل أن يتصور أو ان يفسر هذه الحقيقة فى بيان من العبارة . لانها تدق عن الحواس وتدق عن منطق العقل . الا أن ادراكه نور يغمر القلب فيملأ جوانبه ، وادراك يغشى الباطن فيفسح مسالكه ، ولا يستطاع معرفة أسبابه لأنه فوق الشعور وفوق الادراك ، والعلم مع ما كشف من حقائق والعقل مع ماوصل الى كثير من المعرفة . لم يستطيعا لمس هذا المنبع . فى حدود الاسباب والمسببات ، ومهما يكن من خفاء السبب والسر عن مدارك العقل وكشف العلم . ومهما يكن فى غموضه واستتاره . فان فى القلب قوة بعيدة عن العقل وبعيدة عن العلم تتذوق السبب وتدرك السر ولا تقدر على تبيانه وعرضه على طريقة العقل والعلم

فالمؤمنون موقنون بأنه سر الحياة ، ومصدر القوة والجلال ومنبع النعمة والجمال . ولهم فى التماس الدليل والبرهان صور شتى قد لاتكون أمام غيرهم حاسمة ؛ ولكنها لديهم مقبولة معقولة لا يعتريها شك ولا يدخل عليها أى نوع من أنواع التردد . بل هى عندهم حقيقة ثابتة . ذلك السر

فيه للعاشقين لغز خفى ومصون الجناب تحت الحنايا

فالذين صفت نفوسهم من الغشاوات ، وزكت جواهرهم فهم من المعدن الغالى الخالى من الآفات والشبهات ، سيطر على وجودهم الحب ، فعرفوا أن هذا السر فوق الشعور وفوق الخيال ؛ وأن هذا اللغز عزيز المنال ، وفوق هذا وذلك فهو ظاهرة عجيبة ، وهو اثر بالغ ؛ وهو فوق طور الوجود ؛ تتحطم أمام الحدود ولا تقف فى تياره السدود ، أليس هذا هو النور الأزلى

خمرة تحتسى بغير مدام وتمس العقول قبل الخلايا
فهى كالنار والسعير لهيبا تأكل الغير والسوى والخطايا

فاذا أدركنا الحب وعوامله واسبابه ، واذا أدركنا الجمال وبهجته وجلاله ، واذا أدركنا كيف يغزو الجمال القلوب فيأخذها ، وكيف يهجم الجمال على الأفئدة القاسية فيأسرها ، واذا أدركنا كيف يذل الكبرياء للحب والجمال ، واذا أدركنا أن فى الناس جبابرة فى قوتهم وفروسيتهم ؛ وجبابرة فى عقولهم ومداركهم غزاهم الحب والجمال فاصبحوا ضعافا أذلة أمام هذا السلطان ولا حول لهم ولا قوة ،بل ولاعقول لهم ولا ادراك . أدركنا حقيقة هذا اللغز . وهيهات

كم لهذا الجمال صرعى وقتلى ونشاوى تهتكوا وضحايا

ومن أعجب العجب أن المحجوبين عن ادراك حقيقة حب الجمال المطلق . يؤمنون بسلطان الحب الحسى والجمال الحسى ، وقد وقفوا أمامهما خاضعين ، وتحت سلطانهما مذهولين اليس الأولى لهم حينما آمنوا بالجمال الحسى أن يتدرجوا الى ذلك الجمال المطلق . الذى هو مصدر الحب الأول ، ومنبع الحقيقة البدائية التى كانت لها أول علاقة بين المحب والمحبوب وبين العاشق والمعشوق أيؤمنون بمنطق الحواس ويكفرون بمشاعر القلوب ومعارج الأرواح . اليس هذا عين الحجاب ومدعاة للعجب العجاب

لو ازيح الستار عنا لمسنا ذلك السر لاعناء ولا يا

وهؤلاء المحجوبون المؤمنون بالجمال الحسى ، يلتمسون المعاذير للذين وقعوا تحت سلطانه ويغفرون للمتهتك فى محبته . أما من وقع فى محبة الله ، ومن وقع فى محبة الجمال المطلق وتهتك فيه فليس له لديهم عذر مقبول ، وهو ملحد كافر مثبور ، وكيف ذلك ؟ اليس الجمال الجزئى الموجود فى الأكوان وفى الانسان مفاض عليه من الجمال المطلق ، وهو مستعار منه . أفلا يتدبرون الأمر . أفلا يرجعون الحقيقة الى منبعها . ألا يرون باعينهم كيف يصبح يوما ذلك الجمال الجزئى باهتا ، وكيف يدركه الفناء والبلى وأن الجمال الكلى المطلق يشع دائما ولا يبهت ولا يدركه الفناء والبلى . بل هو واحد يتكثر بالنسب والاضافات هو باق يزهو فى المكونات

ظاهرات تشع نورا جليا من سماء العلا بقصد هدايا

باسطات بكل شيء دليلا لخلاصي من القيود عسايا

فهم يأخذون الظاهر فيدركونه بدون التماس الباطن منه والأصل الروحي فيه ، ولا يصح هذا أبدا . الا اذا حكمنا ان الظاهر هو الكل . كما لا يصح أن يؤخذ كلام المحبين واحوالهم على ظاهره بدون التماس الباطن فيه بالتأويل والعاطفة النبيلة

وقد يتخذ المحب صورة جزئية للحب . فيتخذ صورة انسانية مثلا ويرسم منها صورة جزئية لتكون مرآة يرى فيها معنى من معانى الجمال الكلى ، وهو اذ يصور لنفسه هذه الصورة ، فان قلبه مشغول ومتعلق بحب صاحب هذه الصورة الذى أفاض عليها من جماله الكلى جمالا جزئيا . فلا يجب أن يحكم عليه بالحب الحسى . وماذا يضير الصوفى المحب لو انتقل من عالم الأرض الى عالم السماء واتخذ من المحسوس سلما يصعد به الى المعقول . مثله فى ذلك مثل الفنان اذ يقرأ فى جمال زهرة من الأزهار سر جمال الوجود وابداع الألوهية . اننا لو تفرسنا الباطن بنور البصيرة ونظرنا الى أنفسنا والى الموجودات وارتفعنا قليلا من عالم الأرض الى عالم السموات . لرأينا مسقط الشعاع ومهبط النور . ولوجدنا (الوحدة السارية فى الموجودات) ذات الرمز المعروف

(هند) شمس تبرقعت بحجاب عن مرائى العيان بين الطوايا

وهى روح الوجود لب المعانى قد تجلت تحائفا وهدايا

نعم لو تتبعنا الظواهر وبحثنا التفصيل من الأجمال ، فارجعنا الجمل الى كلمات ، والكلمات الى أحرف والأحرف الى خطوط ، لوجدنا أن الخطوط كلها تتلاقى فى نقطة واحدة هى السر المكنون الذى يتفرع منه كل الخطوط والأشكال والمسطحات

وأن المرء أول ، ما يفكر لا يفكر الا فى نفسه . فاذا بحث فى هذه النقطة وجدها قد شقت لها ممرا باطنيا فيها ، واستطاعت أن تكشف له الوقائع والبراهين بشعور غيبى

داخلى هى التى أحدثته . فوجودها أصبح ظاهر الأثر باطن الذات ، فلينظر كيف يفكر وكيف يفرح ، وكيف يحزن ، بل كيف يتحرك أحيانا ولا يفهم مبعث هـذه الحركة . اليس هـذا كله مبعثه القوة الكامنة فيه . التى لايدرك بطونها فيه ، ولا يدرك منهـا الا ظواهرها التى تبدو عليه ، فاذا عرف ذلك عرف كـذلك أن الوجود مسوق بيد واحدة وأن الوجود كذلك مربوط بوحدة شاملة ، واذا كان موصول السرائر بالعالم كله ، فهو المقصود من العالم كله بما له من العقل والفكر وبالامانة التى أودعت فيه

ياخليلى استفق (فهند) حياتى   لاتناغى ولا تحب سوايا
كم لهـا منة على وفضل   وسخاء ورحمة وعطايا

أن الروح لتعلم ذلك ، ولكم تبدى من المحاولات شغوفة الى عالم الخير والجمال عالم الطهر والصفاء الذى بدأت فيه ثم هبطت منه الى عالم المادة وأصبحت حبيسة بين غش الحواس ومكرها وخداعهـا التى تعوقها وتمنعها دائما عن ارتباطها بعالمها الأصلى . فان الأرواح كانت فى عالمها الأصلى طاهرة صافية خيرية جميلة فطرة الله التى فطر الناس عليها فلما علقت بعالم المادة طغت عليهـا فجذبتها اليهـا . فهى لاتزال تحن الى معينها الأول تطلب الفكاك من أغلالها . فترفع رأسها الى السماء حينا ، وتجذبها الأرض اليها فى أكثر الأحيان ومن الحق أن نقول

لو صفا القلب لارتقى للملاك   وسما فوقه وفوق البرايا

لما سأل الله الأرواح ألست بربكم قالوا بلى . قالوا ذلك لأنهم كانوا طائعين والقلب هو الوعاء الحساس الذى يتأثر بأى حركة طفيفة من تيارات شعاع الحقيقة كما أن النفس هى الشرارة التى تنقدح فتسير مع هذه التيارات ، والروح هى الطاقة النفسية . فالجهاز المستعد لتلقى جميع التيارات أى لتلقى جميع الحقائق وادراكها ووعيها عقلا أو ذوقا هو ذلك القلب

ولقد ايقن القلب حين تلقى جميع التيارات والحقائق وادركها أن الانسان يشرف جميع المخلوقات وله فضل الرياسة عليها ، ولقد أعلن الله شرفه فى الملأ الأعلى حين قال

للملائكة أسجدوا لآدم وحين علمه مالم يكن يعلم فكان علمه أعلى من علم الملائكة حين قالت سبحانك لاعلم لنا الا ماعلمتنا ، ولكن الانسان لايفكر الا بمقدار قبوله لما يبدو أمامه من الظواهر ولا يفهم الا بمقدار نفاذ بصيرته ونواحي تفكيره هي الحاكمة عليه ، ودرجة معرفته لاتكون الا بمقدار استعداده ، وقد أحاطت به غرائزه الطبيعية فاصبح ذو غطرسة وذو كبرياء ولولا ماسبق له من محبة لهلك.لذلك هو يقول عن محبوبته هند وهو عليم برحمتها له

اتمادى على البعاد وتدنو كل يوم شغوفة برضايا

اتغاضى تجاهلا ودلالا وجحودا لها فتظهر ايا

ويقول لم يكن تباعدي عن (هند) وتغافلي عنها باعثا لها على قطع صلاتها بي لأنها تحبنى وتشفق علي ولم يكن جحودي لأفضالها وآياديها ما نعا لها عن أن تسترضيني بمختلف الوسائل من الهدايا والنعم لتشوقني لها وتنبهني الى معرفتها ومعرفة نفسي بازاء هذه الهبات والمكرمات فلا تزال تستعمل معي نفس الطريقة التى نربي بها أولادنا فنرحمهم ونعاملهم اذا هم ركبوا رؤوسهم فشطوا عن الطريقة المثلى وعن الصراط المستقيم فنعفوا عنهم . ولانزال رغم هذه الفعال نقدم لهم الكساء ونتعهد صحتهم ونحدب عليهم راجين لهم عودة الى حظيرة الصواب ، لأنهم قطعة من أنفسنا وجزء من أكبادنا وثمرة فؤادنا ومظهر شخصياتنا ودليل وجودنا . فالولد سر أبيه وهو مرآة نفسه ومرآة أخيه . حتى اذا قسونا عليهم أحيانا فانما نخوفهم والقرآن يقول (وما نرسل بالآيات الا تخويفا) وكل هذه الامثال دليل الحب ودليل الرحمة

كل مافي الوجود سر طريف ومزامير كلهن وصايا

رتبتها بحكمة وجمال وافتنان وجلوة وعنايا

فاذا تتبعنا ظهواهر الموجودات وتتبعنا حقائقها وتفرسنا صلاتها وارتباطها كلها وجدنا أنها تشهد بدلائل الحب والوحدة الشاملة

ووجدنا انها وان كان لها عمر وتقدير من الزمن يطول فسيزول بعد أن ينتهى عمر الانسان لانها للانسان دليل وبرهان ، وهى له جمال حين يروح وحين يغدو الى أن يأتى آخر السلالة ، ولكن الانسان اذ يرى هذا كله ويفكر فيه، لا يقنع بذلك بل يريد أن يفنده مم بدأ ؟ وكيف يزول وماذا وراءه؟ وما الذى بعده؟ وماهى الصلة بينه وبينه وما سر حياته ؟ يريد بذلك أن يلمس الحقائق بيديه . حتى انه ليبحث ويفكر فيما وراء هذا كله . وفيما وراء الظاهر الطبيعى. لقد آمنت روحه التى خلصت من المادة بالتوحيد وبفيض الوجود الصادر عن الواحد بواسطة الحب قبل سلوك الدليل عليه . فان الايمان بالشىء بشعور غيبى يدع المؤمن يتخيل الدليل والبرهان اليه . فاذا أعجم الدليل فى ايضاح البرهان وتفسيره لجأ الى ذوق المحبة ، وقد يجبره على ذلك لغط الحواس وغشها وخداعها . فان القلب اذا توجه الى منبع الحقيقة التمس النهى من سجل الازل ، ومن القوى البدائية الكامنة فى الموجودات وبهذا يهتدى الى النهاية كما اهتدى الى البدىء والفيض بل والايمان . فان هذه النقطة تبعث امام الأعين تيارا من الشعور فقد المادة بمحاولات من الروح نفسها تميل تارة ذات اليمين وطورا ذات الشمال ، ولا تلبث ان تتجه الى النور . أليست الروح قبس نورانى ، وهو اذ يبحث عن الحقيقة بعد أن تأكد من الايمان بها يقول :

قل لماذا تحجبت وتسامت عن عيانى وادلجت بالخفايا

وكذلك يكدح رجال العلم والفلاسفة لفهم قوانين الله ولا يزالون يجدون فى بحثهم عن مبلغ الصلة بين الانسان وبين هذه القوانين ، ولكنهم كلما تقدموا خطوة تحققوا أنهم مازالوا بعيدين عن الوصول اليها ، ومع ذلك فقد وجدوا فى بحثهم وكشفهم أن خلف اسرار الطبيعة سرا هو الحكمة التى اختص الله بها نفسه وأفاضها على خاصته ومحبوبيه ، وان العقل لبطىء جدا عن الاعتراف بوجود هذه الحقائق فالروحيه هى العامل الوحيد فى سلوك سبل الحب ، وهى على حق فيما يتعلق بهذه الواقعيات التى عدها رجال العلم والفلسفة قبل البحث فيها من عمل الوهم والخيال

قد تعبنا بكشف سر دقيق　　دونه دائما حجاب الخبايا
تعب الكل فى تقصى امور　　لاتؤدى الى جلاء الروايا
فغموض يدق اثر غموض　　تنتديه الشكوك رغم النوايا

« * »

نكتة يهرع الحكيم اليها　　جاهد الفكر خاضعا لقضايا
والقضايا موصلات لاخرى　　مع قياس ومنطق ومهايا

« * »

فاسترح أيها الحكيم ورفقا　　من طويل العنا بجهد المطايا
فمتى كان للنهار دليل　　والضحى واضح وشمس البرايا

« * »

ان فيض الوجود قصة حب　　ذات قلب ورحمة وكفايا

يذهب الفلاسفة فى ترتيب الموجودات الصادر من المبدع الحكيم جل جلاله الى تصور دائرة وهمية . يعتبرون انها تبتدىء من نقطة مرجعها اليها ، والبارى هو السبب الاول والصلة الأولى وعلة العلل ، وهو الذى أفاض الوجود على الموجودات ، واعطى كل موجود قسطه منها على ترتيب من الفاعلية فى حلقة السلسلة الدائرية . فكل حلقة تتصل بما قبلها وتأخذ عنها وتعمل فى الثانية وهلم جرا ، ولم يجز أن تخرج عن كمال حكمته ; ان تكون كلها فى مرتبة واحدة ، فلا يوجد أبعدها الا بوجود أقربها وتوسطه فصار بعضها أرفع من بعض ، وبعضها أحط من بعض ، وصار وجود أقربها منه لوجود أبعدها ولما كانت الموجودات الفائضة من السبب الأول شكلها شكل دائرة آخرها الانسان . احتاج الانسان اذا سلك فى مرتبة وجوده أن يعكس الدائرة عند الاعتبار

فينحط من مرتبته الى أدنى مرتبه . ثم يبدأ بالصعود منها نحو المبدأ الأعلا حتى اذا وصل الى اعلا مرتبة وهى مرتبة العقل الفعال كملت الدائرة .(١)

والانسان بفطرته يتهيأ اذا أفاض عليه نور العقل لانه يتصور جميع الموجودات ويتحصل من عقله الجزئى الصور التى فى العقل الكلى ، لأن البارى فاض على العقل صور الأشياء دفعة واحدة بلا زمان ولا حركة ، والانسان يقبلها بواسطة حركة الفلك فى الزمان والمكان على المعاقبة

ولما كان الانسان آخر المخلوقات صار يتقبل ويمثل ما قبله مما فى العالم . فصار بذلك مختصر العالم جميعه وسمى بذلك مختصر اللوح المحفوظ وسمى العالم الصغير حتى لقد قيل فيه

وتزعم انك جرم صغير ٭ وفيك انطوى العالم الأكبر

والانسان هو الحد الفاصل بين عالم الحس وعالم العقل لأنه آخر الموجودات الطبيعية وأول الموجودات العقلية ، فروحه قبس لدنى . فهو اذ يعلو واذ يسفل يصير كالدائرة التى تبدأ فى نقطه ثم تعود اليها ، وصار موضوعا بصورة العالم يحمل صورته فى ذاته ، فهو اغرب المخلوقات واعجبها ، واقصى كماله أن يلحق بالعقل الفعال ، والغرض من وجوده كمال الحكمة ، وينحو الصوفية فى فهم الوجود وترتيب الموجودات الى ما يماثل هذا الترتيب ولكن بحالة روحية بحتة ، قد يسوقونها بلغتهم الصوفية فلا تخلو من الصبغة الكلامية الفلسفية . فيقولون أنه ليس هناك الا وجودا واحدا كل العالم مظهر له . الوجود واحد ولكنه متعدد الصور والاشكال ، والذين أرخوا فهمهم للوجود وترتيب الموجودات قالوا فى ذلك :

(١) هذا الوجود اذا اعتبرناه مجردا من النسب والاضافات كان (الله تعالى)

(٢) واذا اعتبرناه من حيث احتوائه جميع صور الموجودات ومصدر القوة الناطقة المنبثة فى العالم كله (كان العقل الكلى والحقيقة المحمدية)

(٣) واذا رأيناه ظاهرا بالفعل فى صور الكائنات متجليا فى أعيان المحكنات (كان الجسم الكلى)

(٤) واذا أعتبرناه مصدر الحياة فى الكون (كان النفس الكلية التى تدبر العالم)

---

(١) الحدائق للبطليوسى

وأخيرا اذا اعتبرناه من حيث كونه جوهرا يتقبل جميع صور الكون فقد تجلى فى صورة الهباء والهيولى

وكذلك يعتبرون الوجود شكل دائرة تبتدىء من نقطة مرجعها اليها ويتلون فى ذلك قوله تعالى (كما بدأكم تعودون)

فلقد أوجد الله العالم شبحا بلاروح وكان كمرآة غير مجلوة فلما اقتضى الامر جلاء مرآة العالم كان (آدم) (أى الانسان الاول) عين جلاء المرآة وروح تلك الصورة لانه وحده الذى تظهر فيه الذات الالهية متعينة بجميع صفاتها

والمهم فى أقوال هؤلاء وهؤلاء . ان الحب هو علة العلل وهو السبب الأول والعالم بين محب ومحبوب

قصة الحب بهجة وانشراح فى قلوب مطهرات الطوايا

فاستمع قصة الوجود بقلب مرهف منصت لفهم النهايا

ومهما يكن من ترتيب الموجودات ومهما يكن من أمره على وجهه الفلسفى أو على نسقه الصوفى وبغض النظر عن التشابه الملحوظ بينهما شكليا كان أوحقيقيا . فان الحب على صورته المتفق عليها بينهما هو العلة وهو الحقيقة الثابتة ، وعالم الامكان أصبح مجرد رمز مجسم يعبر عن حقيقة مجردة تبعث المتأمل فيها الى التفكير فيما وراء هذه الحقيقة الخالدة التى لاتتطور ولا تتحول .

واذا كان الانسان فى عرف هؤلاء وهؤلاء هو حلقة الاتصال بين الوجود والعدم وبين الحدوث والقدم . وهو الحد الفاصل بين العقل والمادة . وهو الذى يتقبل جميع صور العالم العلوى والسفلى وتظهر على صفحة وجوده صور الموجودات على تكثرها وعلى اختلافها وتباينها فيعقلها بعلمه وادراكه . واذا كانت الحقيقة الخالدة الثابتة تجمع فى شمولها سائر الحقائق الغيبية الكامنة وراء كل حادث مما يتمثل فيه النشاط الباذخ من الصفات . وكان هذا مبلغ كل تجربة حسية أو عقلية أو ذوقية . وكان هـــذا منتهى ماتشرئب اليه سائر العلوم من فروع الرياضات والروحانيات كانت جميع أذواق الصوفية تنتهى الى التوحيد . وكانوا على حق حين يسمون هذا المقام مقام الفناء فى التوحيد

نحن لحن الخلود فينا ومنا آلة العزف مزهرا أونايا
ولنا الحق قد تجلى واجلى وبنا صفحة الوجود مرايا
رب انغام ذات روع ونوع كلهـا مبعث لوحدة غايا

هذه هى (هند) المحبوبة التى شغلت الأفكار بحبهـا وأذهلت العقول بالبحث عن معرفة جمالها وجلالها وتبيان أوصافها ومظاهرها . فاذا خفيت عن العيان فهى ظاهرة بآثارها فى كل مكان وزمان تنادى من فوق عرشهـا باعذب الالحان عشاقهـا أن يقبلوا عليها وان يعتزوا بقربها فليس بينهم وبينها حجاب ولاستار فان لهـا فى كل قلب عرش ولها على كل القلوب سلطان

(هند) اضجعت على الأريكة تشدو وتنادى الخلود والوصل يايا
حسنها يرتدى الخمائل والخـــز لها المجد والعلا والتحايا

ولكنها شرطت ألا تقبل الا من تخلى عن نفسه ، وتنازل عن كبريائه ، وأحبهـا لذاتها فأحبها لذات الحب ورضى عنها وعن قضائها فاصبح جمالها يملأ قلبه ونورها يسرى فى كل جارحة من جوارحه . يستشعرها فى كل شيء ويراها فى كل شيء وانها تملأ عليه كل شيء حتى لقد فنى عن وجوده فنفى نفسه وأثبتها . وترك نفسه وذهب اليها فاصبحت هى حياته وكيانه ووجوده فهى الوجود الحق وما سواها باطل

اقسمت أنهـا بعيدة عنـا ماتبقى من النفوس بقايا
وهى معنا طوى حقيقة كون واليهـا المعاد مثل البدايا

الانسان الكامل

قررت جميع الأديان السماوية قرارا نهائيا بان الجنس البشرى أشرف أنواع المخلوقات ، كما قررت الايمان بالانسان وبسمو غاياته التى خلق من أجلهـا وأعظمهـا الايمان بالله . فالايمان بالانسان سابق على غيره فى قضايا الدين والفكر ، فان لم يؤمن

الانسان بنوعه ان يؤمن بالكون ورب الكون ، وعقل النوع الانسانى هو الذى يدرك الكون ورب الكون ، ولهذا لايمكن لاى فيلسوف أو مفكر أن يهدر قيمة الانسان . لأنه ان اهدرها أهدر عقله ، ولولا عقل الانسان ماعرف جلال الله ولا تبينت صفاته فالانسان هو الحياة الأرضية بالمعنى المركب غير المتناهى .

والانسان وتر مشدود على الهاوية الفاصلة بين لانهايتين ، الوجود المطلق والعدم المطلق ؛ فهو نسيج من كلا النقيضين على تفاوت من نصيب كليهما وفقا للحظات الزمانية بكل ماتنطوى عليه امكانيات تترأجح بين المد والجزر فى تيار المصير المتوثب للروح ، وهو على كلا الحالتين الينبوع الثر للوجود الحق

والانسان هو المجلى الذى يبصر به الحق نفسه فهو مرآته ، وهو العقل الذى يدرك به كمال صفاته ، وهو الوجود الذى ينكشف به سر الحق اليه ، وهو علة الخلق والغاية القصوى من الوجود ، وبوجوده تحققت الارادة الآلهية بايجاد مخلوق يعرف الحق حق المعرفة ، ويظهر كمالاته ، ولولا الانسان لما تحققت هذه الارادة ولما عرف الحق

والانسان الكامل

والانسان الكامل اسم شاع منذ وقت مبكر فى الشرق والغرب ، جعله أهل الديانات روحانيا تتمثل فيه أكمل صور العلم والمعرفة والرحمة والمحبة والخير والطهر والصفاء ، وجعله الذين يدينون بالفلسفة المادية ذلك الانسان الذى اكتملت فيه صفات القوة والجبروت فهو ذلك الملحد الجبار الطاغية الذى لم يدخل قلبه أى نوع من أنواع العاطفة والرحمة ، وهو الذى يستهين بالدماء والاشلاء ، ويستهين بالدمار والخراب فى سبيل تدعيم سيادته وسلطانه على الناس ويكاد فى نظر اتباعه أن يكون شبه آله فهو عندهم فى مقام التقديس وأولئك هم النازية والفاشية ومن يسير على أمثال هذه المذاهب ممن يعبدون القوة ويجعلونها هى كل شىء فى الانسان الكامل

(والانسان الكامل) عند الصوفية : اسم عام يطلق على كل الاناسى الكاملين الذى تحققت بوجودهم كل معانى الوجود وأخصهم الأنبياء والأولياء ، اختارهم الله من خلقه

ليكونوا صلة بينه وبينهم يبلغونهم أوامره ونواهيه ، وهو فى غمرة من صفات الله ؛ اصبح غير واع لها فدخل فى حالة الفناء فايقن اتحاده بالله الذى خلقه على شاكلته فهو مظهر الاسماء الذاتية . وقلبه يقابل عرش الرحمن وعقله يقابل العلم . ونفسه تقابل اللوح المحفوظ . وطبيعته نسخة العناصر وهو على صورة انسان

والاتحاد الصوفى عند الصوفية : هو تلك الحالة النفسية التى تعرض للسالك فى سلوكه وينكشف فيها الحجاب عن نفسه فيشهد أن المحب عين المحبوب والرائى عين المرئى والشاهد عين المشهود

فالانسان الكامل : هو ذلك الانسان الذى عرف الحق وتحققه وبلغ فى هذا المقام أعلا درجات الانسانية . يتمثل فيه أعلا ما يمكن لانسان فى مقامات العلم والمعرفة بالله ويمتاز باخص خصائص المحبة والفضيلة . فهو المثل الاعلا للانسانية . بل الانموذج الذى يستحق أن يسمى بالعالم الصغير . الذى هو نسخة من العالم الأكبر أو هو الوجود الثانى الذى هو نسخة الأول

والانسان الكامل : هو أكمل مجالى الحق ؛ لم يجتمع كمال الوجود العقلى والروحى والمادى الا فيه .

ولقد زعمت بعض الديانات القديمة ان الانسان الأول خلق نورانيا ولما نزل الى الأرض ثوى بها وهو على صورة الرحمن وسموه الطباع التام (ويشبهه الانسان الكامل فيما بعد) وقالت فمن أراد أن يراه فعليه أن يكون خيرا فاضلا طاهرا ويقول بعض الفلاسفة فى ترتيبهم للوجود بالعقل الأول والعقل الثانى الى آخر العقول السبعة وان العقل يمكن أن يتجوهر العقل فيصل الى المرتبة التى فوقه . وان العقل الثالث قد يلحق العقل الثانى مثلا اذا تجوهر وهكذا كمنزلة الثانى للاول

ويقول المتكلمون انه مهما يكن من ترقى العقول المفارقة للمادة بعضها الى مرتبة بعض كما يقول الفلاسفة فمن المستحيل أن تترقى حتى تصير فى مرتبة البارى جل وعلا . بل لن تبلغ نفس ما مرتبة النفس النبوية مهما بلغت من التجوهر . فان بلوغها فقط

الى مرتبة النفس الحكيمة المحبة للوقوف على الحقائق . فهى دون النفس النبوية . اذ أن النفس النبوية هى النفس السائسة المدبرة لسياسة النفوس بأمر البارى الحكيم المدبر ومهمتها تقويم النفوس المنحرفة عن الحق وتسديد الانسان حتى يعقل ماينبغى على الوجه الاكمل الذى ينبغى . ثم اكمال الفطر الناقصة بوضع السنن وكذلك الاخبار بالاشياء التى ليست فى قوة النفس الحكيمة . لان النفس الحكيمة تتقاضى النظر فى الكليات خاصة أما النفس النبوية فلا تحتاج من اكتساب المعارف والعلوم الى المقاييس والمقدمات كالنفس الحكيمة . فالنفس النبوية أكمل الله خلقها فى أصل فطرتها وابقاها تحت عنايته محوطة بحمايته مشمولة بعينه التى لاتنام . بجملة بالمعرفة الحقة ليسوس العالم بواسطتها . ولذلك لن تكون نفس نبوية بكسب فحسب بل بالوحى ، والنبوة ضرورية للتوسط بين الله وبين الناس حتى تنتقل بها أوامر الله اليهم . فالله هو المهيمن على الكون والمعنى به والنبى هو الوسيط . ولا يتصل النبى بالله مباشرة الا فى حالات قليلة خاصة نادرة كما يروى عن النبى ﷺ فى الحديث الشريف (لى وقت لايسعنى فيه الا ربى) وكذلك لايتصل النبى بالله وبالبشر معا . بل يقوم بين النبى وبين الله وسيط آخر هو الملك أى الوحى . يقوم بتفويض كامل من الله . كما أن الرسول لايمكنه مطلقا أن يفعل شيئا قبل استئذان من أرسله بحيث يستطيع أن يقترب شيئا من الكلمة الآلهية وبهذا يكون الرسول على شعور بنوع من سريان سر الالوهية اليه ، بوجه بعيد عن الحلول والاتحاد . وذلك السر هو التأييد وهو النصر . ومثل هـــذا الشعور الواعى يحصل للمؤمنين الذين هم الصديقون والاولياء . وهو العامل الفعال فى نفوسهم . فهو يتطور بالروحية اليهم . ولاشك أن كل نبى فى أمته فى المرتبة الأولى من الانسانية وهو أعلا صورة من صور المثل العليا عندها . ولقد كانت حياة نبينا محمد ﷺ فى الدنيا فى ضمير أمته كذلك . ولا تزال الامة تتمثل هذه الصورة . فهو فى ضميرها فى أعلا الصور وأكملها من المثل العليا . والاسلام هو آخر واكمل صورة انتهجتها روح الرسالة العامة وهو الختام ومحمد ﷺ خاتم الانبياء فهو أكمل صورة من الصور التى انتهجتها روح الرسالة العامة كذلك

ولقد قرأ المسلمون الحديث الشريف الصحيح . انا سيد ولد آدم ولا فخر . وقرأوا الحديث المروى عن جابر بن عبدالله الأنصارى . أن أول ما خلق الله نور نبيك ياجابر فاذا قال المسلمون ان محمدا ﷺ هو أصل كل كمال انسانى فقد صدقوا دينهم الحق . فلهذا ولذلك قال الصوفية أن محمد ﷺ هو (الانسان الكامل) قالوا ذلك طبقا لتقرير أهل السنة . ولكنهم أخذوا حديث جابر بن عبدالله الذى لم يرد فى الصحيح فاعتقدوه يقينا فاحدثوا شبها بين عقيدتهم فى الانسان الكامل وبين ماورد فى زعم الديانات القديمة فى الانسان الأول ثم بين ماذهب اليه بعض الفلاسفة فى مسألة تجوهر العقول المفارقة للمادة عند ترتيبهم لدائرة الوجود : فقالوا (بالحقيقة المحمدية) فى شكل يتفق ومشاربهم واذواقهم .

والذى اعتقده فيهم وان كان كثير من العلماء تحداهم وطعنهم لوجود هذه الشبهة أن هذه المقررات ليس لها قيمه كلية فى تقرير الايمان التى تمس عقيدة التوحيد عندهم بل هى كما يقول الاباصيرى : من نوع

وغاية القول فيه أنه بشر لكنه خير خلق الله كلهم

فعقيدة التوحيد عندهم اسمى واعلا مراتب الايمان . ودرجة النبى محمد ﷺ اسمى واعلا مراتب النبوة عامة ، وثمة بعد ذلك اعتبارات ومجاراة للافكار التى ترسم خطوطا من التصوير الشعرى والخيال عند جدلهم لأهل الديانات والفلاسفة

شرح قصيدة الانسان الكامل

كل هذا الوجود اسفر عنى فانا نسخة الوجود لاغن

أنا ذلك الانسان المهيأ بالفكر والعقل . خلاصته السلسلة على وجه البسيطة لكل الخليقة . أنا ثمرة الوجود التى خلقت السموات والارض من أجلى . كل شىء رمز لمعنى بسيط فى الوجود ، وأنا رمز جميع المكونات والمظاهر فانا ذلك العالم الصغير الذى انطوى فيه العالم الأكبر

كل هذا الوجود اسفر عنى فانا نسخة الوجود الأغن

واذا كان هـذا الوجود الماثل للعيان فى الأرض وما فيها من بحار وأنهـار ، ومن خصب وزرع وأشجار وثمار ، ومن جبال وقفار مليئة بالمعادن والجواهر التى تشتاقها الأنظار ، ومن سماء وما فيها من كواكب وشموس واقمار ، ومن بين هـذه وتلك من أنوار وأضواء وكهارب واسرار ، وبما فى كل ذلك من عناصر وصبائع وآفاق وأغوار واذا كان هـذا الوجود الماثل محل الدهشة ولا يزال مصدر الحيرة لما فيه من المعانى المسجونة التى لم ينكشف عنها جميعها بعد الستاره واذا كنت انا الانسان نقطة دائرة الوجود تمثلت فىّ جميع علومه وفنونه ومعانيه التى يشار اليهـا بالبنان ، وهو حق لا يعتريه بطلان .

أنا حق وصفحة الخلق حق برزت فىَّ فى بدائع فن

واذا نظرت الى نفسى انا الانسان الموجود الحق والى صفحة الوجود الموجودة الحقة . وتأملت كيف قام الوجود . هل جاء بطريق المصادفة فاندفع بنفسه أم ان هناك ارادة عليا وقوة خفيه وتدبير حكيم فوق طاقة ذلك الوجود وفوق مستوى عقل الانسان المفكر . هى التى أفاضت على الوجود وجوده عندما أرادت الظهور فصار الكون . انما الحق هو الأول والآخر

أنا فعل وفعل ربى عدل ثم فضل له الرجا والتمنى

الفعل نتيجة ارادة والارادة نشأت عن علم . فقبل وقوع الفعل لم أكن شيئا مذكورا وكنت فى عالم المجهول . ولكن المخرج لرواية هذه الحياة فرغ من وضع فصولها واتقن تصويرها ونظامها وتأليفها فى عموم نواحيها العلمية والفنية فهى فى غاية الاحكام والانسجام ولما يتم العرض الى النهاية . ثم بدأ يسلط على الشريط شعاعا من نوره . فيظهر للعيان ما يظهر ثم يختفى ما يتم عرضه ليظهر غيره ثم تكون النهـاية الى آخر (يسألونك عن الساعة أيان مرساها فيم أنت فى ذكراها الى ربك منتهاها) . كانت الأفلام مسجونة فى مستودعها محجوبة عن شعاع النور . الذى هو روح الوجود وحياته . ثم سلط الله ذلك الشعاع الربانى على ما لديه فى خزائنه . فلما أذن بازاحة الستار كنت

أنا فى الوضع كالخيال ولكن قد يرانى العيان جرما بأين

وبتحقيق الأين فى الحساب الهندسى للخطوط والاطوال والاشكال فى الدوائر والمسطحات التى ظهرت بعد البطون وصارت أمكانيات فى حدود ورسوم . فارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير . ثم ارجع بهذه الخطوط والاشكال وغيرها من الرسوم الى اصلها ومنشئها . فلن تجد غير نقطة البدء التى سار منها القلم يرسم على صحائف الوجود هذا التصوير من تلكم الافلام فما هى هذه النقطة انما الوضع الحقيقى لها

نقطة الوهم . نكتة الفصل خط فخطوط تلوح من وجهتين

أما وضعها الاول . فالحجاب فى الافلام . أما وضعها الثانى فمقابلتها للشعاع ومن هنا يكون الخيال على الشاشة . فكلا الحالتين عدم اذا لم يسلط شعاع النور . فاذا ظهر ذلك الشعاع ظهرت براعة التصوير وحسن الاتقان ودقة الفن وما صنعته الافكار (ألم تر الى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا . ثم جعلنا الشمس عليه دليلا . ثم قبضناه الينا قبضا يسيرا)

هذه الشمس تجعل الظل رمحا ثم من بعد ميلها رمحين

ذلك الظل فى الصباح ظلال تتلاشى والشمس فوق الجبين

وكل هذه أمثلة فالشمس تمثل الذات وشعاعها يمثل الصفات والوجود كالظلال أو كالخيال ولله المثل الأعلى ، ومثال آخر فالله المحيط الواسع ومثالنا أى الموجودات فى قلب المحيط كالزبد والامواج وذلك نشاط الصفات وصفة المحيط الماء وقد تجمد الامواج فتصير كالثلج على سطح ا د يذوب الثلج فيعود الى حالته الاولى تبعا للنشاط البادى فى المحيط وما ثم الا المحيط ، الماء وموجه وزبده ، فالموجودات

تشبه الثلج اذ يذوب ويفنى فهباء لدى الألوهة كونى

فاذا كان هذا عند التحقيق مبلغ وجودى ووجود الاكوان . واذا كنت أنا ممكن الوجود لست قائما بنفسى . وكل ممكن ليس له وجود حقيق بل يعتريه التغير والزوال . كما يظهره الامكان وتدفعه القوة التى تعمل فى الخفاء خلف الاستار

فوجودى نشا نشوءا معارا لست فى الاصل مستقلا بشأنى

وحياتى مفاضة من حياة ذات فيض وذات علم لدنى

انما الحسن والجمال المفدى   أبدعته يد لها كل حسن
قوة فى الخفا ذات اقتدار   ومليك منزه عن شين

نعم . ورد فى الحديث القدس (كنت كنزا مخفيا فأحببت أن أعرف ، فخلقت الخلق فبي عرفونى) كان الله ولا شيء معه غير اسمائه الذاتية . كان الفرد الصمد الواحد الاحد . يحمد نفسه بنفسه ويعظم نفسه بنفسه ويحب نفسه بنفسه ، ولما أراد أن يتجلى من علياء خفائه المكنون من البطون الى الظهور . جاوبت الصفات هذه الارادة فانبلجت فى تيار المحبة هذه المظاهر ، ولم يكن ثمة دوافع غير المحبة لان الله هو الغنى والكل مفتقر اليه

عندما اشتاق وهو فرد غنى   لمعة للصفات فى ذات عين
أخرج العين فاستجابت واضحت   مطلع النور صنعة الكفين

ولما كان الانسان هو المقصود من الوجود . وهو الانموذج الفريد الذى يمثله فى عناصره وطبائعه وكل مافيه من الخصائص المادية ؛ وهو العين التى تتجلى فيها الشمائل الروحية وتعقل صفة الربوبية . كان هو الجامع الصغير الذى تحقق به كمال الوجود المادى والروحى ، وهو العين المستعدة لقبول مميزات النقيضين

وهى ان شئت قلت روحا ولطفا   وهى ان شئت قلت جسما بغين
تتهادى تأرجحا بين نور   وظلام لجمعها الصفتين

ومن المحقق أن الروح التى هى حياة البدن خلقت قبسا لدنياً فى حظيرة الملأ الاعلا وكانت من قبل طيعة طاهرة صافية فلما هبطت من ملئها وتلبست بالبدن علقت باقذار المادة وعالمها الملوث . ولكنها لاتنفك تتلمس الخلاص لتتخذ مكانها بين ألفها ونظائرها فى عالم الخير والجمال حتى لكأنها توشك أن تنخلع من مادتها وتخلع أردية البدن طلبا للصفاء والطهر التى اعتادتها قبل هبوطها

فهى بالروح قد تعانى المعانى   جذبة الحب قبلة الخلين

ومع أن هذه الحالات تعاودنى بين حين وحين فترتفع بى الى عالم الملكوت حيث الملأ الاعلا بل قد تعلو بى الى الحضرات القدسية فأحظى بتذوق لذة القرب والوصال حيث ينحسر الزمان والمكان فانا بين حالتين من الشد والجذب . غير مستقر الى

قرار . هذه مادتى الكثيفة ومعها نفسى وغرائزى الطبيعية . وهذا قلبى ومعه روحى واتجاهاتى الروحانية . أمانة حملتها فجهلت قدرها وظلمت نفسى اذ لم أقم بالاداء كما يجب أن يكون الاداء . وخصائص ومميزات أودعت فى فلم استعملها حق الاستعمال فانا ذلك اللغز الغريب .

لم أزل جامع العناصر فرد جوهر من كثيف أو بين بين
لست فى شك اننى بعد مشدو د اليها وموثق فى تجنى
فاشتمالى على العناصر أدنى فهمها لى بجذة العلم منى
واشتياقى الى معينى علابى بشعاع من الضياء اللدنى
وارتباطى الى الملا هز روحى للتعالى الى الحظير الأغن
أنا حق لاننى ذو حياة ووجود وذو مقابلتين

أنا الفاتح لما اغلق من خزائن الوجود . أنا الذى سخرت لى الاكوان ومفاتيحها فى يدى . مرآة قلبى الصافى منطبعة فيها صور الموجودات أحولها وأنقلها من عالم الغيب الى عالم الشهادة . علمنى الله جميع اسمائها . أنا نفحة الله وكلمته أقابل العلم الاعلا بعقلى . وأقابل اللوح المحفوظ بنفسى . وأقابل العناصر بطبعى . وأقابل الهيولى بقابليتى . أنا الصلة بين الله و بين الاكوان. أول ماخلق الله العقل ، وجعلنى بحلى له وبه عرفته وعرفت منه الموجودات .

أنا لوح وفى خط هجاء الف الحرف همزة الوصل منى
قلم النور خط قبل كتابى وهو يبدى مع المشيئة شأنى
صورتى للوجود مجلى وملقى جمع الضد مبعث للتغنى

أنا الف أبجدية العالم وأنا همزة الوصل بين الكلمات والحروف أربطها بعضها ببعض . ونفسى هى اللوح الذى خط فيه بالقلم . كل شىء فى الطبيعة جامد صامت لا يعطى جوابا عن غاية الحياة ، ولكنى بعقلى وبقلبى تنبثق لى المعــانى المسجونة ، من أضواء المواد والقوى فابرزها . وهبنى الله صفات ربانية ، ومواهب اصطفائية وشمائل روحية .

ربطت بها الكون كله . وأن فى الكون ولاء متباين بين نسبه المختلفة وكل له معنى من المعانى وسط أمواج محيط الوجود . لخصتها واختزلتها ووضعتها أمام الفكر ملموسة

صفحتى تطبع الحقائق فيها وأمامى أنا كمالى وأينى
بانطباعى على المرايا أرانى أنا نفس وليس غيرى لعينى
حكمة للتحكيم جاءت وفاقا فى وضوح ودقة وتأنى

غمرنى الحق بنوره ؛ وكسانى جلابيب عزه ، وخلع على خلع التشريف والرضوان وجعلنى خليفة فى الأرض ؛ وجعلنى للناس اماما ، وأصطفانى له خليلا وكليما وحبيبا ؛ وعلمنى الاسماء كلها ؛ ووهبنى اسماءه الحسنى وصفاته العليـــا ، وميزنى بالعقل ومعرفة توحيده ، وحملنى فى الفلك ، وأبدل نار العدى بجنة الرضوان والقرب منه ، وعلمنى منطق الطير وسخرلى بساط الريح انتقل عليه وملكنى ازمة الجن ، وعلمنى كيف أحيي الموتى بأذنه ، وصرت أجعل من الطين كهيئة الطير باذنه وأبرؤ الأكمة والأبرص بأذنه . وليس فى ذلك من ارادة لى غير ارادته ، وليس لى من فعل أو قدرة على فعل بغير تلقى أذنه ووحيه . فانا نفسى نتيجة وأثرا لفعله . وكل مابدى للخلق على يدى كنت فيه وكيلا لا أصيلا . فاذا أراد الله أن يتصل بالناس ليشهدهم جـــلاله وعظمته وليعلمهم توحيده . أجرى المعجزات أى الامور الخارقة للعادة والعالية على مستوى طاقتهم ليلفت عقولهم وأذهانهم وأفكارهم اليه . وأذا أراد الله أن يرقى الناس فى نظمهم الدينية والاجتماعية أو أن ينقلهم من أوضاع الى أخرى ؛ وضع يده فى قلبي وسلط من لدنه تيارا خفيا يحركنى به فتجرى بذلك أحكامه وقضاءه وبيناته . وأكون أنا فى كل هذه الحالات نائبا عنه . ولكن كثيرا من الناس انتقص فطرهم وبعدهم عن أدراك المحرك الحقيق يوهمون فيظنون أن الفاعل هو من جرى على يديه الفعل وينسبون له الالوهية تارة أو حلول الآله فيه تارة أخرى بل العجب أن يجعلوه فى مصافهم فيجعلوه أبا وانا ابنه ، وحاشا لله كل ذلك أو أشباه هذه الاوصاف والشبه وتعالى علوا كبيرا . وشتان بين مقام الربوبية وبين مرتبة العبودية وشتان بين القديم والحادث . وحاشا للرب أن يتخذ ولدا أو أن يكون له شريك فى الملك أو أن يحل فى صورة من الصور الزمانية

والمكانية فانه تعالى يتعالى عن الزمان والمكان لانه البارىء المصور

غمرتني جلائل العز والنو ر فاضحى يظن فى التبني
ظلمونى اذ الهونى ومالى غير ظل كذا العبودة شأني
شرف الله بالمحبة قدرى وحباني صفاته فهو حصني
صرت موهوب بالاصالة مرهو ب مطاعا وصار نورى وعونى
وكفتني نيابتي كل شيء فقضى لى بحبه كل دين

كذلك خطوت بادراكي الذى ركزه فى لحل عقدة التوحيد. وخطوت خطوة عظمى الى الكمال العقلى والشعور القلبى والغيبى ، ورأيت أن العوالم كلها مسوقة بيد واحدة وفى اتجاه واحد نحو الواحد الأحد . وذلك شأن النبوة حيث أن مهمتها الاولى هو توجيه الناس الى كمال التوحيـــد أولا ثم توجيههم الى الكمال الخلقى فى المعاملات والاجتماعيات وبناء الاسرة وبناء الدولة. حتى يصير الجميع الى حسن المآل . ولما كان لابد من عوامل تيسير الخير والرفاهية للناس ولا بد من توفير أسباب الدفاع عن الامة ، أن يستخدم الانسان جميع القوى الطبيعية والعناصر المختلفة فيها من أجل ذلك . وهذا هو سر سبب وجود الصلة الوثيقة بينه و بين جميع العوالم . اشهود حقائق الربوبية فى القوائم الطبيعية ودلائل التوحيد فيها

خضعت لى عوالم الكون لما انست بى بنسبتي وبأيني
فى يدى الملك من جبال وسهل ثم مفتاح كل كنز وكون
قد تحكمت فى الخلائق طرا كل طير وكل وحش وجن

نعم لما كانت جميع صور الاشياء ومقدراتها واشكالها والوانها واحداثها وافعالها معلومة لله مفعولة بأمره . وكنت أنا الفاتح للنشأة الأولى وأنا الواسطة بين البطون والظهور وبين ابراز مافى خزائن الله من العلم المكنون . فأنا أول من انقدحت له شرارة الفكر من حياة المعقولات . وكان الفكر مجهولا للحواس فاستجمعته وفصلته صوراً ذهنية ثم وزعته عليها . فان ظل يد الله تقع على كل شيء وتضعه فى موضعه فى دقة وكمال ،

وكنت أنا ذلك الظل

فانطوى لى الحديد كالطين حتى ... صار أهدى ولان سناً بسن
واهتبلت الدفين فى معدن الأر ... ض فأنبا يقول أنى وأنى
واكتشفت القوى وجمعت منها ... كهرباءا ومغنطيسا بفنى
ثم جبت البحار ظهرا وبطنا ... واختزنت العجيب فى طى دنى
وامتطيت الهواء مرقى ومسرى ... مركبا كالبراق للفوق يدنى
واتخذت الاسير بعد رسولا ... صادقا كالامين ينقل عنى
واعتزمت المسير للنجم لما ... قست ما بينه اقترابا وبينى
ثم لازلت اهتدى فى نجاح ... لارتياد السها بوقدة ذهنى

ومع ان هناك اختلاف بين وحدات العالم بعضها عن بعض فى النشأة وفى التكوين وفى القوى والطبائع ، ولكنها بالنسبة لى متقاربة لأنى موصول السرائر بها . فاصبحت بذلك معلومة لدى وأصبحت أنا كالمجهر تمر من خلاله هاتيك الطبائع بخصائصها بعد أن كانت غيبا مستورا . لذلك لاترى شيئا قد استعصى على فهمه . ولا ترى شيئا لم أصل الى اعراضه وأحواله ولاترى شيئا لم استخدمه عند توجهى اليه بما وهبنى الله القدرة على حل الغازه وفتح اغلاقه . وذلك تقدير العزيز العليم

كلما خاطرى يواجه أمرا ... يتدلى كما أشاء وأعنى

وليس هذا بعجيب ولا مستغرب فأنه أنزل أصولها من سماء علاه فهى هابطة على فالمعجزات أيقظت ذهنى ونبهت فكرى لأن اسعى فى ارتياد السبيل لأشباهها . وكل خطوة أخطوها فى هذا السبيل تستهوينى الى خطوات أخرى حتى أضع يدى على مفتاح بعض اسرارها وماثم فاعل فى الحقيقة الا هو . فمعجزة نوح عليه السلام جعلتنى أسير الى صناعة الفلك وقصة يونس والحوت نهتنى الى صناعة الغواصات وبساط سليمان عليه السلام جعلنى أعمد الى استخدام الطائرات ومن داود عليه السلام علمنى صناعة الحديد

واستخدام الآلات ، وفى عمل ادريس عليه السلام هدانى الى علم النجوم وفى تكليم موسى عليه السلام علمنى استعمال الأثير وفى المعراج لمحمد ﷺ قرب الأذهان الى بلوغ اجرام الكواكب وارتياد آفاقها كل هذه وغيرها من معجزات الأنبياء تتفتح بها أفكارى لأنها تشير على الى الانتفاع بقوى وعناصر الطبيعة وقد كانت من قبل مغلقة الفهم حتى فتح الله أبوابها بهذه المعجزات ؛ وان كل ما ظهر فى عالم الكشف العلمى أو من عالم الصناعة والرياضة وغيرها من العلوم والفنون ليس هو كل مافى الكون من أسرار فان كثيرا من أسرار الطبيعة وقواها مازال مسجونا مستورا وكلما عثرنا على حل لغز منها واجهنا لغز آخر ثم آخر . ذلك لان الموجودات مغمورة باللانهاية واللانهاية غارقة فى اللاشعور ولا يزال يظهر كل حين مسائل ومسائل باتحاد أنفسنا بالطبيعة واستجلاء غوامضها وأسرارها . متى أذن الله .

كلها مدهشات يحسبها الغلسف فعال السما أو اعمال جن
كيف لا والحبيب أيد نصرى أرسل الفيض فى سحابة مزن
أو لست الذى خليفة ربى قمت بالامر حيث ربى أذنى
وقد أختار أن أكون أماما ولى العرش والعلا والتمكنى

وان النظر فى آفاق الطبيعة وموادها وقواها واستخدامها والعمل فى أغوار المكونات واستجلاء غوامضها وأسرارها ما هى الا وسيلة لمعرفة الحق والبلوغ مرتبة التوحيد الخالص للخالق والتنزيه مقام الربوبية عن كل مماثلة (وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والارض وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى فلما افل قال لا احب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال ياقوم أنى برى مما تشركون .)

هذا الدليل الكافى على أن النظر فى الكون ليس مطلوبا لذاته بل للعلم بالله ولمعرفة قدرته وتوحيده ، وهنالك مقام القرب منه ذلك الذى اختص به عباده المخلصين اليه

الذين أصطفاهم واجتباهم اليه . فان كل من حصل فى هذا المقام على درجة حق له أن يفخر به وان يترك السوى لأنها أزاء ذلك لا تستحق النظر اليها وحق للانسان أن يقول

واجتبانى الى مقام فريد فوق طور الوجود والحب فنى
فرياحى اذا تهب شمالا أو جنوبا تحرك الوجد منى

قالوا لعل بعضا من عشاق الجمال الحسى وجمال الطبيعة الجزئى يتخذونه سلما للصعود عليه الى محبة الجمال المطلق الذى تنوعت ظلاله وألوانه على المحسوسات والماديات ذلك الذى أكسبها سر الانجذاب اليها فسرى تياره السحرى فيها وسيطر على مشاعر العشاق وعواطفهم فهاموا به أيما هيام . فاذا كان هذا حال عشاق الجمال الجزئى كما صارت الينا أخباره . فكيف يكون حال الذين تدرجوا من حب الصورة الى حب المصور ؟ وتوصلوا بحب المعانى الجزئية الى حب المعانى الكلية وبالمقيد الى المطلق ذلك الذى يسبح فى جميع وحدات الملك وفى كافة حضرات الملكوت . واذا كانت محاولة الاتحاد بعوالم الطبيعة تأتى بمثل هذه العلوم والفنون والمعارف وتحدث كل هذا الهيام مع أن معانيها جزئية؟ فماذا يكون الشأن للذى يحاول الاتحاد بالمعانى الكلية فيحاول استشعار الاتحاد بالله . وماذا يكون مبلغ علومه ومعارفه بل وهيامه ؟

لذة القرب جد تستوعب الدهر كأن الزمان غمضة عين
موقف فذ فوق نقل وعقل لا يرى فيه من شعور بكون
لحظات تمر بالقلب تبقى جنة العز والرضا والتهنى
حالة تربط الخلود بوصل محنة الحب صعقة المكونين

تصور هذا الموقف وفتش عن نفسك أين هى من الموجودات ، بل أين هى منها انك لن تجد الموجودات ولن تجد نفسك ، فلن تحس بشىء ما لانك مستغرق الشعور ذاهل عن كل شىء .وان محبوبك ملأ عليك الدنيا أخذك من نفسك فخرجت من هذا الطور الى طور آخر أصبحت لاترى الا (هو)

تلكم الحال لاترجى بصحو فهى تمحو الفروق بين اثنين
لاتقل كيف فالجواب سلام واغمض العين وامح رؤية غين

ان ترم صوغها حديثا وذكرا لم تزد فى الجواب عن حرفين

اما هذه الهوية فهى التى سكر بها المحبون من الصوفية وذهبت أرواحهم اليها ، عندما دبت فيهم نشوة الشراب وتذوقوا سر كمال الذات وجمال الصفات ففنت بشريتهم فى روحانيتهم ، وتحققوا بلذة القرب ، وأيقنوا أنها السعادة التى ما بعدها سعادة ، فلما عادوا من سكرهم الى صحوهم أخذوا يدلون السالك عليها . فقالوا له إن أردت أن تحظى بنسمات القرب وان تجلس على بساط الأنس فى حضرة القدس

فالتجىء للشراب شوقا وذوقا تعمر القلب والسعادة تجن

والتمس منه مايروق ويحلو مثل لون الزجاج لون اللجين

فهو يذنيك عندما تلعب الخمـــر ويأتى الذهول عن طورين

فالطور الأول طور الفناء عن السوى ، والطور الثانى طور البقاء مع المحبوب فاذا فنيت عن نفسك وعن السوى ، بقيت مستشعرا جمال الذات والصفات وأصبح مرادك فلا يتحرك لسانك الا بذكره ، ولا تشهد عينك الى محاسن جماله ، ولا يخطر لك خاطر الا فيه ، ولا تفعل الا ما يوجهك اليه فاذا صحوت من سكرك واستذكرت ما كنت فيه فى حال هى البهجة والسرور التام حاولت العودة الى ذلك المقام واردت وصفه فعجزت أن تقول شيئا ، وما وجدت الا مايختمر فؤادك من لواعج

ذاك تيار من أنين ووجد وهو موجات بين مد وغن

فلا يمكنك ألا أظهار هذه النفثات والتأوهات ، أما صفة الحال ولذة المقام فهى من خصوص الروح سر مكنون يخفى على الجوارح ولا تعرفه الحواس ، وكيف يمكن وصف شىء يتعالى على الحواس فلا يمكنها التعبير عنه بلغتها وللحب لغة خاصة وللروح سر خاص .

لغة الحب كالطلاسم لغز كهرباء تدب فى قلبين

قاما الترجمان يصطنع الشر ح ويرضى البيان فى لغتين

فعلى الذين يريدون الوقوف على حال المحبين وتعرف بعض الحقائق التى ذهبت بهم الى اتجاهاتهم أن يحاولوا الاضطلاع بنوع من المحبة وأن يحوموا حول حماها المقدس وأن يشقوا لأنفسهم طريقا إليها قبل أن يوجهوا الى المحبين الملامة والمطاعن أو أن يسلموا لهم أحوالهم ولو ببعض التحفظات ؛ وعلى السالكين سبيل المحبة أن يستبقوا على أنفسهم ولو بقليل من التريث حتى لا يثيرون عليهم غضب الخصوم . فان سبيل الشريعة القصد ، وفى القصد ضمان من الفتنة

كل من رام للكمال مقاما فبلوغ السبيل بالحسنين

استدراك واعتذار

لم أجد من الوقت متسعا لشرح قصيدة (الحب والمحبوب) ثالثة القصائد التى يصدر الكتاب ، والواقع أن هذا الثالوث يغذى بعضه بعضا مع فوارق جزئية لا تحتاج الى بيان آخر ، فالفكرة واحدة فى أصلها . وانى فى الختام استدرك ما كان يجب أن يكون فى الصدر ورابع القصائد (التصوف) فأتم بها الكتاب ، فلقد كنت وضعت هذه القصيدة سنة ١٩٣١ ونشرت منها (بمجلة المعرفة) جزءا بعدد يوليو ، ولما كانت تحتوى وتلم بكثير من مواضيع التصوف رأيت نشرها اتماما للغرض المقصود . وانى أعتذر للقراء أن وجدوا فى الكتاب عدم الترتيب والتبويب أو عدم الاشاره لبعض المراجع أو لأسماء بعض الكتاب الذين قد استعنت بأقوالهم عن سهو لا عن سوء قصد أو عدم تقدير لا سيما وقد نوهت فى المقدمة أنى سأكتب للاخوان والاحباب موجزا عما قرأت لا مما ابتكرت ، ولست أزعم أنى أضع (رسالة) فى الموضوع على المعنى المصطلح عليه ، بل هى حكاية أرجو ان أكون قد وفقت فيها بعض التوفيق فأكون قد أديت لهم بعض ما يجب نحوهم ونحو التصوف . والله عنده الأجر والثواب . وانما الأعمال بالنيات ولكل امرىء ما نوى

التصوف

عجبا يصير مدى التصوف هكذا قلب الحقائق وامتهان معانى
تحريف أوضاع وسوء تفهم وسقوط مرتبه وفعل هوان
أوهام شعودة وعلم كهانة وطقوس مخرقة وذلة جانى

* * *

قوم أضاعوا حسنه وجلاله ومهابة الارشاد والتبيان
قد بدلوه حماقة وسخافة هزوا وسخرية الزماز العانى
أضحى بفعلهم مشوبا باهتا ومحرفا عن شرعة العرفان
فجماعة لا يفقهون أصوله دخلوا بضعف عزيمة ودهان
وجماعة تخذوا المظاهر حرفة تركوا اللباب وأمسكوا بمبانى
تخذوه للعيش الرخيص وسيلة من غير اقبال ولا اذعان
فاولاء قوم لا تساق أمورهم لحصيلة العلم الشريف الهانى
ظلموا التصوف حين ولوا شطره ليجب ما فعلوا من البهتان

* * *

أما الذين قد افتروا وتحللوا من جادة التكليف بالاعلان
فاولاء قوم ما استحقوا نظرة ولبئس ما فعلوا من الخسران

* * *

ان قيل جذب، قلت سترا للخنا والجذب اذ يعلو فللديان
والجذب اذ ينحط فهو مطية لدوافع الافساد والطغيان

* * *

أما الولاية فهى منزلة التقى وترسم الاحكام فى ايقان

أو من تولى الله يألف شرعة دون التى أوحى من القرآن ؟
أم من تولاه الآله يقوده لمواطن الاسفاف والحرمان

* * *

والفيض الهام على هابط بالفتح والتقوى وبالاحسان
فاذا تسفل لم يكن الا هوى أو فعل وسوسة من الشيطان

* * *

والكشف ادراك البصيرة للنهى من منبع الاسرار والفرقان
وكذا الشهود هو انغمار فى هدى فى الحق دون تتبع البرهان

* * *

أما الكرامة وهى أمر خارق أجراه ذو الاكرام للانسان
نصر وتأييد لنفس آمنت حتى تصير بنجوة وأمان
ليست تجىء كما تريد وكلما رمت التحدى لالتماس رهان
فاذا لمحت وقوعها لمغانم فوسيلة استدراج واستهجان

* * *

تلك الأمور من التصوف ان سمت وفق الشريعة باكتمال جنان
فهو السمو الى الكمال وسلم ترقى عليه الروح للديان
علم القلوب وغسلها مع ملئها بالطهر والعرفان والايمان
يهدى الى ذوق الفضيلة والتقى ومراتب التوحيد والايقان
علم مؤيد بالشريعة كنهه ومدعم بشواهد القرآن
علم يريك من النفوس دخيلها ومن الطوايا فتنة الفتان
يتعقب الشيطان انى ينتهى فيسد توا مسلك الشيطان
فهو الطبيب الباطنى لذى ضنا ولمهجة ولهى وقلب عانى
واذا تعدى الشرع فهو ملفق ومعرض للمقت والحرمان
فى سيرة السند الرسول المصطفى ظهر التصوف ثابت الأركان

كان التحنث من أخص طباعه (وحراء) يشهد كيف كان يعانى
زهـد وتقوى والتماس للنهى ولطائف الرحمات والاحسان
زكت المحبـة فى طهارة قلبه تسمو مع الايثار والايمان
فتأمـل وتفكر وتوسـل وتعلق بلوامع الايقان
فهناك لازمت الحقائق فكره رهن الظهور بآية وزمان
اشعاع نور فى مفاوز حيرة تغزو الفؤاد بوحدة الديان
فأحس أن الحق بالغ أمره ومطهر لعقائد الانسان
حتى انتهى للوحى فى تفصيله والاذن جاء بمحكم القرآن
جهـر النبي بديـنه فى قوة ونبالة وحصافة وبيان
فحياته قبل الرسالة يقظة نفس زكية فى هدى وجدان

* * *

نقد التصوف سادة لم يؤمنوا بمسائل الايحاء فى الأذهان
بحثوا بسوء الظن فيه فأوجسوا وتحمسوا لظواهر الاركان
قالوا عناصر اجنبية كلها علقت به من جملة الأديان
فاتوا له من كل واد صبغة دين الهنود وحكمة اليونان
حتى الحلول والاتحاد تداخلا مما بدى فى الجانب النصرانى

* * *

شبه بعيدة الاحتمال لأنهما ضربان فى التحقيق يختلفان
وتشابه شكلى فى أوضاعه والشكل لايغنى عن البنيان

* * *

قالوا ، دخيـل لايلائم ديننا يدع الحياة رهينة الجدران
فالزهد فى الدنيا يحقر أمرها وهى السبيل لرفعة الانسان
فاذا قعدنا للعبادة وحدها فمصيرنا كمصائر الرهبان
وحقيقة الاسلام تجمع طيها روح السمو وعزة الأوطان
فالسعى للدنيا وقمة مجدها بالحسنيين ومـيلة الرضوان

والدين للدنيـــا وللآخرى معاً نهج مثنى ينتهى لأمـــان

* * *

قلت التصوف ليس زهدا كله فالزهـد فرع لاح فى أغصان
والزهد فى الاسلام بذل وقرى والبـــذل لايأتى من الفقدان
فمن الزهادة أن علقت بثروة تيسير وجه الخير والاحســـان
ومن الزهادة حين يدهمنا العدى بيع النفوس لردكيد الجانى
والزهد ضـد الشح إن حققته لاالزهد فى الأسباب والميدان

* * *

والزهد فى طبع النفوس جميعهـا كفـل التسـامى للملا النورانى
ما اختص دين بالتزام سـبيله لحقيقة فى الأصـل دون الثانى
فهناك أحوال النفوس تشـابهت بنوازع فى نشـأة وكيان
فترى الزهادة والعبادة مطلبا للحد من شـطط النفوس الشانى
وتصـوف الاسـلام ليس ترهبا بـل فـكرة وتأمـل وتدانى
بل ليس فلسـفة لغـير هـداية تنسـاب للالحـاد والـكفران

* * *

قالوا تفلسف معشر قد أسرفوا وتصـايحوا بالشـطح والدوران
قد أقحموا أحوالهم بمزالق من كل صوب بالخطير القانى
لم يفصحوا عماتكن صدورهم واستعجموا بالرمز والـكتمان
واستعملوا باب المجاز وألغزوا أسرارهم بمعاقل الاذهان
فاستشكل المفهوم من موضوعهم وبدت (سعاد) كثيرة الألوان
فاذا تتبعت العبارة خلتها ضربا فى التضليل والبهتان
ما بين فلسفة وبين تدين لا تستبين حقيقة الايمان
وتـكلف التأويل يتبعه الهوى ولـكل مسألة أذن قولان
والشرع وفى بالصراحة هديه لم يبق شيئا غامض العرفان

* * *

قلت المحبة شأنها التلوين والتمكين فى الاسرار والاعلان
والحب اغراق الفؤاد وملؤه بمحاسن المحبوب والنشدان
أشواق تغلى فى مراجل تكتوى وتفور بالاحراق والغليان
والوصل قرب ، حالة روحية أنوار تضوى فى لطيف أوانى
هو دهشة فى حيرة فى غمرة تدع المحب ملون الاشجان
فالود هجر والدنو تباعد حالان للاظهار والابطان

* * *

والقوم ذاقوا فى المحبة شربة سكروا بها وتهتكوا بالحان
ذهبوا بأطرار المحبة للفنا وغدى وجودهم الى الفقدان
وغدى الوجود الحق عندهم أذن القوة العليا لدى الاكوان
شهدوا الجمال الحق بين وجوده فى كل ظاهرة وكل مكان
لم تبق فى الاكوان أية ذرة الا وفيها للحبيب معانى
قوم لهم فى كل علم جولة غاصوا بكل دقائق وثوانى
فاذا تأذن صحوهم وتكلموا مزجوا التقى بلواعج الوجدان

* * *

ان شئت قلت شريعه فى آية أو شئت قلت حقيقة بتدانى
أو شئت قلت عبارة أدلى بها كلف المحب ونشوة السكران
أو شئت قلت رطانه أدت الى شطح المشاعر وانزلاق لسان
أو شئت قلت تهافت يغدو الى صبغ الالة ، صبغة الرجحان
والحق ان كلامهم ذو لذة للمدنف المشتاق والولهان

* * *

حاشا لقوم قد فنوا فى حبهم أن ينزلوا بالحب للكفران
والحب تنزيه الحبيب بقدسه فمحال أن ينحط للنقصان

* * *

أصل الحلول لدى العبارة كونه تقييد شىء فى حدود مكان

أما حقيقة الاتحاد فانها شيئان يختلطان يمتزجان
وكلاهما لا يعقلان لفاعل مع أى مفعول ويمتنعان
لايستوى ميت بحى انما تحيا القلوب بنفحة الرحمن
ماثم الا واحد فى قدسه مولى الوجود وخالق الأزمان

* * *

والقوم قد لزموا برغم شذوذهم أمر العبادة والسلوك الهانى
وتعهدوا الإرشاد فى سنن الهدى للطالبين بهمة وجنان
أدوا فرائضهم بذوب قلوبهم عبدوا الآله بوقدة الأذهان
عرفوا العبادة أنها فقدانهم لعوالم التقييد والامكان
فاستغرقوا فيها الوجود باسره فى حضرة الاطلاق والاحسان
وغدى حديثهم بحال فنائهم فى عرفهم من أعذب الألحان

* * *

فاشارة التشبيه لفظ عابر لايستقيم ووحدة الديان
لكن ارسال الكلام ونظمه يحتاج للمحسوس فى التبيان
وتشابه الأسماء ليس ذريعة لتزاوج الأفكار بالأقران
وتشابه التصوير ليس بملزم لتشابه فى مادة البنيان

* * *

شتان بين مشبه ومنزه هذا طبيعى ثم ذا روحانى
فمدار أبواب التلفسف عندهم رد الشكوك ولهفة الحيران
كى لايقال بأنهم قد قصروا عن درك ماللعقل من أفنان
ومرادهم بث الحقيقة أينما وجدوا السبيل بلفظ أى لسان
لولم تكن تلك الخلال صفاتهم لرميتهم وطعنتهم بسنانى

* * *

قالوا الطريق عسيرة ومحوطة بالفتنة العمياء والفتان

والنفس قد جبلت بحكم طباعها أن تستجيب الى الهوى وتعانى
فاذا تركنا النفس دون رعاية دلفت الى الأغراق والأذعان
بل ربما سقطت بدعوى أنها تعلو وكان العكس للنقصان
والشرع قانون يحدد سيرها لمنازل العلياء والرجحان

* * *

قلت ؛ الطريق هو التزام جهادها وحسابها عن أوجه البطلان
وهو انتهاج رياضة تسلوبها عن كل ما افت من البهتان

* * *

والنفس فطرتها الصفاء وكيفها مثل الأثير لطيفة السيلان
تنساق فى عجل وتسبح سبحها كالكهرباء قوية السريان
أضحت مصفدة القوى وحبيسة بين القيود وثوبها الجسمانى

* * *

والنفس عنصرها الاصيل ملائكى مردت بما علقت من الادران
هبطت لطور فى الطبيعة فانزوت وتحورت لغرائز الحيوان
قد صح ترويض الوحوش وقودها لم لا نروض وحشنا النفسانى

* * *

والنفس مرآة يغطيها الصدا وهو الحجاب القاتم الظلمانى
فاذا أنجلت ظهر الوجود وما به فى طى صفحتها بوجه ثانى
صور العوالم والعلوم ومالها من حكمة وتناسق ومعانى
واذن تصير حكيمة وعليمة بدقائق الاشياء والاعيان
لم لا تعود لاصلها ومعينها فتكون فى وهج وفى لمعان
لم لا تناغم الفها ولداتها فى عالم الارواح والنورانى

الخطأ والصواب

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٦	٦	فى	من
٩	٩	تغير	بغير
١٠	١٠	الحلود	الخلود
١٢	٥	جسم	جسما
١٣	٥	مطاع	مطاعا
١٣	١٥	رسو	رسولا
١٥	١٥	فحوهرى	فجوهرى
١٦	١٢	ابتعاد	ابتعادا
١٧	١٥	ترتله	يرتله
١٧	١٧	وخاطر	وخاطرا
١٨	١٧	وان فهما	أن يفهم
١٩	٣	لا يحل	لا تحل
١٩	٢١	على	على من
٢٠	٦	وللاحبان	وللاحباب
٢١	٣	الالهامات	الالهامات التى
٢١	٧	عبادة	عباده
٢٠	٢١	وسنتهم	والسنتهم
٢٣	١٧	وتربية	تربية
٢٤	١١	الى	الى ما
٢٤	٢٤	الدين	الدين
٢٦	١٦	تحصوصا	تحصوها
٢٦	٢٢	بريسون	برجسون
٢٦	٢٢	للاخلاق والدين	الدين والاخلاق

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٢٨	٢٠-٢١	(الفقرفى التصوف)	التعرف لمذهب التصوف
٣٤	١٠	نعمة	نعت
٤٢	١٢	مقال	مقالا
٤٢	٢١	مقنعتيه	معتنقيه
٤٨	٧	ووكل شىء	ووكل كل شىء
٥١	١٠	تصوف	التصوف
٥١	١٣	ريق	فريق
٥٣	١٠	أبى الحسن	أبى الحسين
٥٧	٥	الكون	اللون
٦٥	٩ - ١٨	أحمد البخارى	أحمد النجارى
٦٧	٦	الاخران	الاخوان
٦٧	١٢	حى	حى
٧٠	٢١	المـاده	أمداده
٧٤	٢٥	يتلاشى من	يتلاشى فى
٨٠	١٠	وتأنس	تأس
٨٥	١٤	والمتمكلمين	والمتكلمين
٨٦	٦	أحد	واحد
٨٦	٢٢	لوجود	الوجود
٨٨	٢٤	حقيقى	حقيقيا
٩٠	٩	خائفا	خائف
٩٢	١١	استناره	استتاره
٩٢	٢١	امام	أمامه
٩٦	٨	تجاهلا	تغافلا
٩٦	١٤	الكساء	الكساء والغذاء

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٩٧	١٤	قبس نورانى	قبسا نورانيا
١٠٠	١١	تفهم	لفهم
١٠١	٧	عرش	رشا
١٠١	٨	ساطان	سلطانا
١٠١	١٥	النفرس	النفوس
١٠٥	٤	محمد	محمدا
١٠٥	١٤	فقيدة	فعقيدة
١٠٦	٤	صبائع	طبائع
١٠٧	١٦	تجمد	تتجمد
١٠٧	١٧	سطح ـ د	سطح الماء قد
١٠٨	٢	الحفا	الخفاء
١١٠	٧	وأثرا	وأثر
١١٢	١٣	الاسير	الاثير

فهرست

صحيفة

کتابخانه تخصصی تاریخ اسلام و ایران